192

HARLEQUIN

روايات أحلام

فاتنكِ الأمس

آن ميثر

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

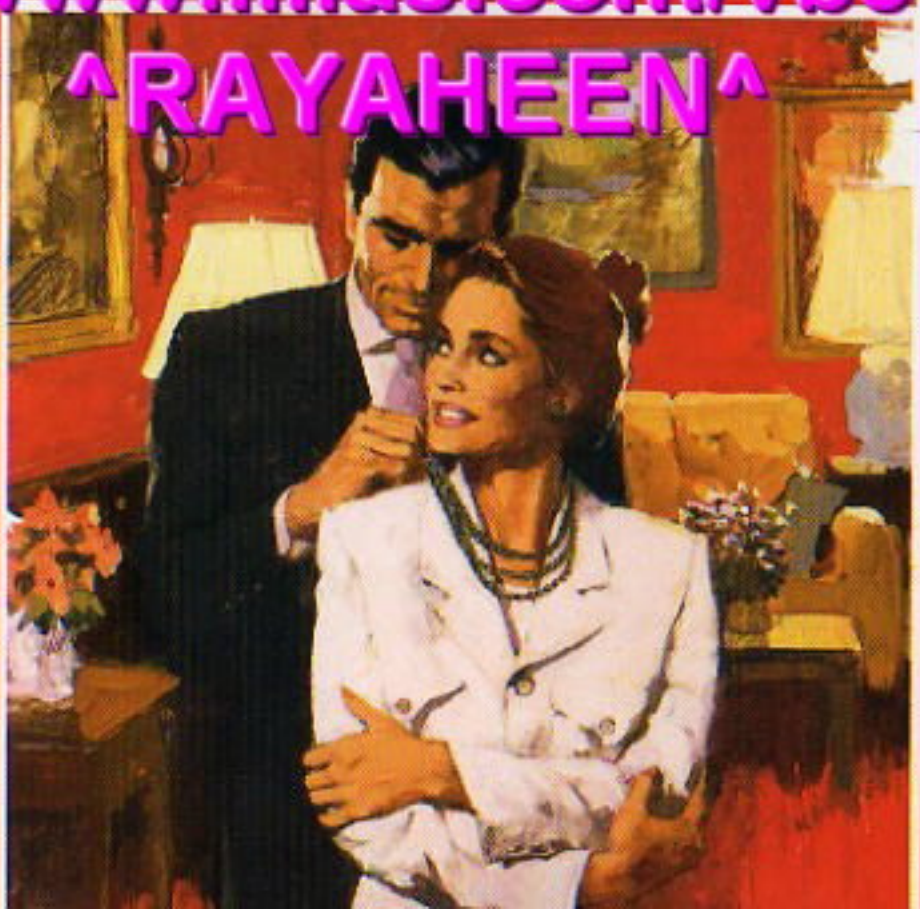

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

فاتك الأمس

منذ أربع سنوات دفنت راكيل حباً لم تكتب له الحياة وتركت تيار النسيان يجرفها بعيداً... وعندما دعاها والدا جيم لقضاء العيد معهما عادت الذكريات تطاردها ... أكد لها والداه أن جيم لن يكون حاضراً ولكن إحساساً بالترقب يتملكها ... فماذا ينتظرك يا راكيل؟

... لن تجدي طيف السعادة التي عشتها ردحاً قصيراً ولا الأحلام التي قضى عليها حبيبك بخداعه ... ما يخيم على المنزل هو شبح الموت ... فهل يستطيع الموت أن يجمع ما عجزت عنه الحياة؟

١ ـ شبح في المرآة

«تعالي لزيارتنا يا راكيل. لا يمكنك قضاء احتفالات الميلاد وحدك في لندن، تعلمين أن «جيم» لن يأتي لقضاء الميلاد هنا، ونحن نعلم طبعاً أنك لن تأتي إلينا في حال جاء هو، لكنك تعلمين أيضاً كم نحب رؤيتك أنا وروبرت. تعالي إذن، تعالي...».

أغمضت راكيل عينيها وهاجس الكلمات ما زال يطرق تفكيرها.

إن «ليز» بالغة العطف نحوها لا سيّما بعد موت والدها، وهي مصممة على أن لا تدعها وحيدة ليلة الميلاد. واستمرت تلح عليها حتى بات رفضها جافاً وفي غير محله.

وبعد، فماذا يضرها لو قبلت؟ إن ليز وزوجها روبرت شهمان عطوفان وهي تحبهما. وبما أن جيم يمضي زمناً طويلاً في الخارج، فهما، دون شك، بحاجة إلى صحبة شابةٍ مثلها.

تنهدت راكيل وفتحت عينيها. كانت مدينة ديرهام مدّثرةً بالضباب المسائي، فما لاح في العتمة إلا أنوارٌ تتخايل أمام القطار. بعد عدة أميال فقط سينتهي بها المطاف في «نيوكاسل» حيث تقصد، بالرغم من أن ذلك ما عاد يولد فيها أية بهجة.

ربما ما كان عليها أن تأتي، فهذا بيت جيم وليس بيتها، وفيه يقيم والدا جيم. فكرت في ذلك الضيف... لا بأس، فلطالما عاملها والداه كصديقة الأسرة وليس... ليس ماذا؟ سكرتيرة ابنهما؟ حبيبته؟

توترت شفتاها وتملكتها رجفة. مهما كانت علاقتها به في الماضي،

فقد انتهت الآن، فكيف تكلمهما اليوم كما اعتادت من قبل؟ كيف تتحدث عن خططها، عن مستقبلها ولا علاقة تربطهما بذلك؟ كان الوضع صعباً للغاية... بإمكانها أن تتصوّر الصمت وقد خيم بثقله عليهم، وبإمكانها أن تتخيلهم يراجعون ذواتهم محرجين وكلٌّ منهم نادم على تلك النزوة التي جمعتهم ثانية. كما أنهم ملزمون بقضاء عشرة أيام في هذا العذاب مما سيجعل الأمر فظيعاً.

في محاولة منها للتخلص من هذه الأفكار الكئيبة، استقامت في جلستها ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآتها الصغيرة تنظر فيها إلى وجهها فيما مقصورة القطار خالية تقريباً.

لاحظت أن شفتيها بحاجة إلى رسم ماكياج جديد، وعدا ذلك فإن هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات ونصفاً، لم تغير شيئاً في مظهرها... كانت تنظر في المرآة إلى فتاةٍ لها ملامحها الهادئة نفسها، وفيها سمات بريئة، أما شعرها فكستنائي كثيف ينسدل من مفرق الشعر، ووجنتاها عاليتان متوردتان، ذات أنف مستقيم، وفم واسع مكتنز، ومع ذلك، كان انسجام ملامحها الرقيقة يبعث قشعريرة في جسمها. تحت أهدابها الكثيفة الداكنة، لم يظهر في زاويتي عينيها الخضراوين سوى الشرود والبرودة، لقد مضى وقت طويل منذ توقف جمالها عن بعث السرور في نفسها، مات شعورها بالرضا حين كانت تدرك مبلغ تأثيرها على الرجال... مات منذ أثبت جيم لها العكس، منذ برهن لها أن جاذبيتها لا جدوى منها. صحيح أنها تجذب أعين الرجال أينما ذهبت، إلاّ أنها تعلمت كيف تجعلهم بعيدين عنها.

تجاوز القطار محطة ديرهام متمهلاً ومن دون توقف، ثم عاد يسرع مرة أخرى بين المدينتين. لقد مضى اكثر من سنتين على مجيئها الأخير إلى هذه المنطقة الشمالية، وانقضى أكثر من ذلك على أولى زياراتها مع جيم إلى منزل أسرته «كلير هايتس» ليعرّفها إلى عائلته، وفي الوقت نفسه تذكرت الهواء القارس وصفير الرياح بين أفاريز سطح المنزل كما

استعادت هياج الأمواج وتكسرها فوق الصخور. كان المنزل «كلير هايتس» مبنياً على شاطىء المحيط، فوق تيارات بحر الشمال الخطرة الغدّارة، وما من غرفة في البيت يستطيع فيها المرء الهرب من هديرها العنيف المتوحش.

وتذكرت راكيل كارهة أن غرفة جيم تقع في مؤخرة المنزل، وهي تشرف على الخليج الذي يصبح في فصل الصيف هادئاً وأزرق زرقة البحر الأبيض المتوسط وهدوءه. أما في ليالي الشتاء فتزعق السماء وتغضب حتى أقصى حالات الغضب. وجاهدت في نبذ هذه الذكريات، فكل ذلك أصبح من الماضي، ولكن هذا لم يحول دون الألم الذي اجتاح قلبها.

بطبيعة الحال، يعرف والداه القصة برمتها، لكنها لم تلمهما فليسا مسؤولين عن تصرفات ابنهما. الصداقة التي ألّفت بين راكيل وآل «شارد» ما زالت هي هي لم تتغير رغم كل شيء، ومع ذلك فقد شعرت بأنها ما قبلت ضيافتهما إلاّ لأنها تشك في أن جيم، لو علم، سيحبّذ ذلك.

وصل بها القطار إلى رصيف المحطة، فما كان منها إلاّ أن شدت حزام معطفها الجلدي الأحمر على خصرها النحيف، ثم حملت حقيبتها وتوجهت إلى باب العربة. توقعت أن يكون والد جيم في استقبالها، لذا تجاهلت الخدمات التي عرضها عليها حمّال فتى، ثم سارت بسرعة نحو حاجز التذاكر.

لم يكن من أثر لروبرت شارد بين زحام الناس الذين كانوا ينتظرون القطار... كانت واثقة من أنها لا بد أن تلمحه، لو كان موجوداً، بشعره الأبيض وقامته التي تشابه قامة ابنه طولاً. ولكن كان أغلب الموجودين نساء وقفن في مجموعات ينظرن إلى الركاب المترجلين.

ـ راكيل، راكيل، أنا هنا.

انتبهت راكيل إلى صوت المرأة وقد اكتنفه بعض اللهاث فيما هي تعيد التذكرة المرتجعة إلى الحقيبة الملقاة إلى كتفها. نظرت حولها فلم تَرَ والد جيم، بل والدته تسرع نحوها، وقد بدا القلق على ملامحها الجذابة.

أقبلت وهي تبتسم لرؤيتها، ثم احتضنتها وقبلّتها قائلة:

ـ آه، يا عزيزتي، كنت شديدة الخوف من أن أتأخر! فالضباب يغمر المدينة، وخفت أن يسبقني القطار.

ضحكت راكيل وهي تعانق المرأة بدورها بحماسة وقد تلاشت شكوكها نوعاً ما إزاء حرارة ترحيب ليزي. فقالت مازحة وهي تنظر إلى ساعة يدها:

ـ في الواقع، وصل القطار في موعده تماماً، وكذلك أنت، فاهدئي. لقد خرجت لتوّي من المقصورة.

ـ أحقاً؟

وأخذت ليز تتفحص وجهها بقلق، ثم ضحكت:

ـ الحمد لله على هذا! يمكنني الآن أن أتنفس الصعداء، حسناً هل لنا أن نلتمس بعض العون؟

وقبل أن تتمكن راكيل من الاحتجاج، كانت ليز قد أشارت إلى الحمّال الذي تجاهلته راكيل من قبل، ولكنه، لحسن الحظ، لم ينتبه إلى ذلك فانحنى ليحمل حقيبتها، ثم سار أمامهما بينما اندفعت خلفه ليز وهي تنابط ذراع راكيل.

وفيما هما تخترقان الضباب، قالت بلهجة تحوي شيئاً من السخرية:

ـ إنني، على الأقل، لم أجد صعوبة في ركن سيارتي.

ترى، أذلك لم يستقبلها روبرت بنفسه؟ وتمنت ألاّ تكون زيارتها هذه موضعاً للخلاف بينهما.

سألتها ليز وهي تنظر إلى الحمّال يضع حقيبتي راكيل في صندوق السيارة «الجاغوار» الرمادية التي كانت بانتظارهما في ساحة المحطة:

ـ هل كانت رحلتك مريحة؟ يا لها من ليلة سيئة! إنها لا تشبه الليالي السابقة ليوم الميلاد!

ابتسمت راكيل وهي تدلي بجواب مناسب، ثم جلست في المقعد الأمامي، ما أجمل الشعور بالدفء هنا! جلست ليز بجانبها، أخبرتها

راكيل بفكرتها، فأجابت عابسة:

ـ نعم، فالجوّ بارد، لا بأس. ما زلنا نشعل المدافىء في «كلير هايتس».

ـ إنني بغاية الشوق إلى ذلك.

قالت راكيل هذا وهي تجلس بكل ارتياح، ومرة أخرى عاودها الشعور بالتوتر مع انطلاق ليز بالسيارة، فقالت:

ـ وكيف حالكم؟.

أجابت ليز تغيّر الموضوع:

ـ كان أسفنا بالغاً لوفاة أبيك، لا بد أن ذلك شكل صدمة عنيفة لك.

فتنهدت راكيل.

ـ هذا صحيح، ولكنها لم تكن مفاجأة كما تعلمين، فقد كان والدي يعاني من مشاكل في قلبه منذ سنوات.

أومأت ليز تقول:

ـ نعم، أتذكر أن جيم.. أعني أنه تحدث عن ذلك عندما جئت لزيارتنا من قبل.

أومأت راكيل بدورها وهي تنتبه إلى مبلغ الصعوبة التي ستواجه الجميع في تجنب ذكر اسم جيم، ثم قالت:

ـ لقد انتهى كل شيء الآن، فقد مرت أربعة أشهر على وفاة أبي. ثم إن عملي يشغلني والحمد لله.

ـ نعم، إنك الآن مساعدة رئيس التحرير، أليس كذلك؟ لا بد أنك تجدين هذا أكثر بهجة من عمل السكرتيرية.

فقالت راكيل بحماسة:

ـ آه، نعم. فأنا أضع الآن أفكاري الخاصة، بدلاً من اعتمادي على أفكار الآخرين. وهذا ممتع جداً.

ـ أرجو ألاّ يكون العمل صعباً، إذ تبدين اكثر نحولاً. أرجو أنهم لا يتعبونك كثيراً.

فابتسمت راكيل وقالت مازحة:

ـ كلمة نحول ليست بمديح. الأفضل أن تقولي (رشاقة)، فالنحول يعني الهزال.

ضحكت ليز بالرغم منها.

ـ حسناً، لست هزيلة، ولكنك لست ممتلئة كما أتذكرك.

أحنت راكيل رأسها. كان ذلك صحيحاً، ولكن هزالها لا يعود إلى إجهاد نفسها في العمل، ولا إلى صدمتها بوفاة أبيها، لقد هزل جسمها بعد انفصالها عن جيم، ولم تستعد وزنها قط بعد ذلك.

ثم قالت:

ـ يكفي الكلام عني، وماذا عنك وعن روبرت؟ هل أنتما بصحة جيدة؟

ـ أنا وروبرت؟ آه، نعم، نعم، نحن بأحسن حال، وشكراً لك يا راكيل. لا شيء يشغل بالنا، عدا إصابات الرشح أحياناً كما تعلمين، أما آلام الروماتيزم فبسيطة، إنه التقدم في السن كما أظن.

قالت ذلك وهي تهز كتفيها.

أجابت راكيل بسرعة:

ـ لكنك لست كبيرة في السن.

فهزت ليز رأسها.

ـ إنني في السابعة والخمسين هذه السنة، وروبرت في الستين، إننا لا نصغر في السن.

فعادت راكيل تقول بعطف:

ـ ولكن هذا ليس كبراً في السن، هل ما زال روبرت يجهد نفسه في العمل؟ لا أظنه يذهب إلى مكتبه يومياً؟.

فقالت ليز بابتسامة متوترة:

ـ ليس يومياً، منذ انضم روبين إلى الشركة، أراح والده من أعمال كثيرة، وأظنه سيستلم الشركة لي النهاية.

روبين هو الأخ الأصغر لجيم.. يوم عرفت راكيل جيم، كان روبين

ما يزال يرتاد الجامعة فلم تره سوى مرة واحدة، أما الآن فهو متزوج. وفي آخر رسالة من ليز أخبرتها بأنهما، هي وروبرت، قد أصبحا جدّين أخيراً، ونكهنت راكيل بأنهما يتمنيان لو كان جيم مثل أخيه راضياً بإدارة أعمال شركة الفولاذ التي تملكها الأسرة، ولكن النظام لم يعجبه يوماً.

قالت راكيل وهي تشعر بحاجة إلى الحديث:

ـ أظن حفيدتك في الشهر الثاني من عمرها الآن.

فأومأت ليز برأسها باسمة:

ـ ليزا؟ آه، نعم، إنها رائعة تماماً! إننا، أنا وروبرت، نرى روبين ونانسي كثيراً.

كانت راكيل تستمع إلى ذلك وهي تتساءل عن رأي روبين في قضائها هذه المناسبة مع والديه.

ترى، أهذا هو سبب الاضطراب الذي يتملك ليز أحياناً؟ أهو سبب سخريتها المفاجئة وتمنّعها عن التحدث على سجيتها؟ تملكها إحساس أن جميع من في المنزل ليسوا على ما يرام، فقالت:

ـ أهنالك ما يشغل بالك يا ليز؟ أريدك أن تكوني صادقة معي.

وعندما بدأت المرأة بالاحتجاج، عادت تقول:

ـ أعلم بأنك دعوتني إلى هنا بنفسك وأنا شاكرة لك حقاً، ولكن إذا كان هذا يثير في الأسرة أية مشاكل....

فقاطعتها ليز وقد نفد صبرها:

ـ في الأسرة؟ وما هي المشاكل التي يمكن أن يثيرها في الأسرة مجيئك إلى هنا، يا راكيل؟

ثم هزت رأسها بقوة، فقالت راكيل:

ـ أكره أن أشعر بأنني ورطتك في مأزق، أعني أن بإمكاني الإقامة في فندق بكل سهولة...

فقالت ليز والإخلاص يتجلى في صوتها:

ـ لا أريد سماع هذا الكلام...

فتنهدت راكيل.

ـ لكن شيئاً يشغل بالك، أليس كذلك؟ هل الأمر يتعلق بروبرت؟ أعترف بأنني كنت أتوقع أن أجده هو في استقبالي...

ـ جيم في البيت!.

تفوهت ليز بتلك الكلمات فجأة، محاولة أن تشرح الأمر، فشعرت راكيل بالدم يهرب من وجهها.

ـ ماذا... ماذا قلت؟

لكنها كانت قد فهمت من دون الحاجة إلى التكرار، لقد قالت ليز إن جيم في البيت...

ثم أسرعت ليز تقول:

ـ إنني آسفة يا حبيبتي، لم نكن نعلم أنه قادم، وكيف يمكننا ذلك؟ كان الأمر مفاجأة غير متوقعة، لقد وصل قبل أمس فقط و...

قالت راكيل بصعوبة:

ـ كان عليك أن تخبريني، أو أن تعلميني على الأقل لكي أتدبر أمري بشكل آخر...

ردّت ليز بضعف:

ـ لم يدعنا نقوم بذلك، ثم لماذا تغيرين رأيك على كل حال؟ أنت المدعوّة وليس هو. ولو أنه لم يتلق رصاصة لما كان هنا.

ـ لم يتلق رصاصة؟

لم تكن راكيل تظن أن الصدمات قد تتوالى عليها هكذا الواحدة تلو الأخرى، ولكن هذا ما حدث... استدارت في مقعدها والتفتت إلى والدة جيم ترمقها برعب، فأخبرتها ليز بسرعة عما حدث: «إنه على ما يرام! صحيح أن الجرح سيء، لكنه سيشفى، وهو محظوظ إذ نجا بحياته وأصبح بعيداً عن ذلك المكان الذي أرسلوه إليه».

حاولت راكيل أن تستوعب ما كانت ليز تسرده عليها مقاومة رغبة قاهرة تدفعها إلى إمساك ليز بكتفيها وهزها هزاً علّها تخبرها بكل ما

حدث. شعرت بجفاف في فمها، وارتسمت قطرات من العرق فوق جبينها، وأخذ وابل من الأسئلة ينهمر في رأسها غير مصدقة بأن جيم تلقى رصاصة، وأن شخصاً ما حاول أن يقتله، ولكنه نجا بمعجزة من رصاصة قاتلة... كيف حدث هذا؟ وأين أصابته الرصاصة؟ وكم من الوقت يستغرق شفاؤه؟

تابعت ليز كلامها بعطف:

ـ كنت أعلم أن هذا الخبر سيصدمك، يا راكيل. يمكنك أن تتصوري شعورنا عند حضوره عصر يوم الثلاثاء، لقد أرسلوه بالطائرة من «ماسوتا» يوم الاثنين وأظنهم أرادوه أن يدخل المستشفى في لندن لعدة أيام. ولكنك تعرفين طبع جايمس، لقد جاء إلى «نيوكاسل» بالطائرة، ومن هناك استأجر سيارة أوصلته إلى البيت.

تنفست راكيل بعنف وهي تكبح ذعرها، وتعنف نفسها بغضب لتصرفها الغبيّ هذا... على أية حال لماذا تهتم بما يحدث لجيم شارد؟ فهذا الرجل لم يعد يعني لها شيئاً، لماذا كل هذا الكدر؟ ألأنه أصيب بضرر؟ ولِمَ لا؟ فهو يستحق الألم، نظراً للألم الذي زرعه فيها، ولا تنسى بيتسي. ومن يدري، لعل القدر قد تلطف بها أكثر مما كانت تظن. ولعل القصاص العادل يطال الشخص المناسب في الوقت المناسب.

ـ هل... هل قلت «ماسوتا»؟

سألتها هذا وفي عقلها تتخبط أفكارٌ وفي قلبها الحيرة والضياع. لقد باتت الإقامة في «كلير هايتس» خارج مدار البحث مهما قالت ليز، ولكن ليس بإمكانها أن تطلب من المرأة أن تنعطف بالسيارة وأن تعيدها إلى المحطة هذه الليلة.

ـ نعم، ماسوتا.

ثم تابعت وهي تتنهد:

ـ تعرفين أين تقع ماسوتا، أليس كذلك؟ إنها إحدى جمهوريات أفريقيا الوسطى، لقد تم الاستيلاء على الحكم بانقلاب مفاجيء، لعلك

قرأت عنه. وهذا هو السبب في وجود جيم في «كامسولي»، كانت مصادفة رهيبة! لقد وقع فريق التصوير في كمين للقوات الحكومية، هل تصدقين هذا؟ ثم أمضى أربعة أيام في مستشفى السجن قبل أن يطلقوا سراحه.

بللت راكيل شفتيها:

- و... وكيف حاله؟

- لا بأس، كما أظن.

استطاعت راكيل أن تومىء برأسها قائلة:

- أنا آسفة... أعني لأجلك! لو كنت مكانك لأصبت بصدمة إذ أفاجأ به قادماً على هذه الحال.

- بساق متصلبة ويسير على عكازين؟ يا إلهي! ظننت في البداية أن ساقه مبتورة فجمد الدم في عروقي.

استطاعت راكيل أن تتصور شعورها.

قالت وهي تختار كلماتها بعناية:

- عليك أن تفهمي، يا ليز، أنني... أنني لا أستطيع البقاء كما كنا نظن. أعني... لا يمكنني ذلك.

- ولماذا لا يمكنك؟

والتفتت تنظر إليها متوسلة:

- راكيل يا عزيزتي، صدقيني أنني أفهم شعورك! لكن عليك أن تحاولي فهم مشاعرنا نحن أيضاً، هذا هو سبب حضوري بنفسي لاستقبالك عوضاً عن روبرت. لحماقتي، ظننت أنني سأنقل إليك الخبر بشكل طبيعي.

- حسناً، هذا ما حدث، ليز، إنني شاكرة لما تحاولينه من أجلي، صدقيني، ولكن...

- إذا غادرتنا، سيغادرنا جيم بدوره أيضاً.

أطلقت ليز عبارتها هذه بصراحة فحبست راكيل أنفاسها:

- ماذا تعنين؟

فترددت ليز:

- عندما أخبرناه... أنك قادمة إلينا، تكهن بتصرفك، وأدرك أننا إذا أعلمناك مسبقاً بوجوده، فإنك لن تأتي.

ووضعت يدها بعطف على يدي راكيل المتشابكتين في حجرها وهي تكمل قائلة:

- إنه الميلاد، يا عزيزتي. ألا تتسامحين مع هذه... الأحداث غير المتوقعة؟

أشاحت راكيل بوجهها وهي تسألها:

- ماذا تعنين بقولك إنني إذا ذهبت، سيذهب هو أيضاً؟

فقالت ليز بتعاسة:

- هذا ما قاله.

تملك راكيل إحساس مرّ بالظلم... هذه هي طريقة جيم في استغلال الناس، إنه يدرك عجزه عن إبقاء راكيل بالطرق الطبيعية، ولكن ها قد منعها من التصرف بتهديده هذا، فكيف تذهب وهي تعلم أنها قد تحرم أسرته منه في فرصة الميلاد هذه؟ خصوصاً أنهم لا يرونه إلا قليلاً؟ فهو يمضي العطلات في بيته القائم في لندن، في تلك الشقة المترفة المشرفة على منظر رائع للمدينة، كما أنه لا يأتي إلى الشمال إلا نادراً، ومن سوء الحظ البالغ أن يأتي إليهم الآن في الوقت الذي دعوا فيه راكيل إلى زيارتهم.

أحنت راكيل رأسها وهي تحار في الجواب بينما صدر عن ليز صوت يائس:

- اسمعي يا عزيزتي! أعلم أن كل هذا يشكل صدمة بالنسبة لك، وربما تظنين أننا غير عقلانيين إذ نطلب منك البقاء، ولكن هل هذا مستحيل إلى هذا الحد؟ وبعد، لن تكوني وحدك مع جيم، رُوبين ونانسي والطفلة يأتون غداً، ويوم الاحتفال سنقيم حفلة جميلة.

وانتظرت جواب راكيل، وعندما لم تقل شيئاً، أضافت: «إنني واثقة

من أنك ستتمتعين بالحفلة، يا راكيل. تصوري شعورنا إذا تركتنا بسبب جيم».

ضغطت راكيل شفتيها وهي تفكر في طريقة للتهرب. ولكن بلا جدوى، فمهما اجتهدت في العثور على جواب، كان قرار جيم دائماً عقبة في طريقها، ويمكنها أن تتصور المرارة التي سيثيرها إصراره على العودة خصوصاً أنه مصاب، وقد جاء إلى والديه طلباً للمساعدة.

سحبت نفساً مرتجفاً... عليها بشكل ما، أن تقوم بأفضل ما يمكن، على الأقل إلى أن تنتهي أيام الاحتفالات... لن تخذل آل «شارد»، خصوصاً بعد شهامتهم في فتح باب استقبالهم لها. ليس ذنبهم أن عاد جيم فجأة ودمّر كل ما بنوه! بما أن ساقه هي المصابة، فقد يمضي أكثر أوقاته في غرفته. على كل حال، سيحتاج إلى الراحة لاستعادة قواه، ومن المؤكد أنها بعد كل ذلك الزمن لن تخاف من مواجهته.

وأخيراً قالت:

- لا بأس. سأبقى يا ليز، سأمضي العطلة الأسبوعية على كل حال، وبعد ذلك سنرى.

أجابت ليز بارتياح بالغ:

- لن تندمي يا عزيزتي، آه، لا أدري ما كنت سأفعل لو رفضت البقاء، لشدّ ما أرغب في أن نستمتع جميعاً بالمناسبة.

وأطلقت ضحكة قصيرة متوترة.

حانت من راكيل ابتسامة صغيرة ثم قالت بجفاء:

- أرجو ألاّ يخيب أملك، كما أرجوك ألاّ تتوقعي الكثير.

هزت ليز رأسها:

- أتعنين المصالحة؟ كلا يا عزيزتي، نحن لا نتوقع ذلك.

- هذا حسن...

قالت راكيل ذلك بحرارة، ثم أشاحت بوجهها تنظر من النافذة بعينين لا تريان. لا تستطيع أبداً الصفح عن جيم، أبداً! ثم استحوذ الخوف عليها

لمجرد التفكير بما تخبئه لها الساعات المقبلة.

على الرغم من الضباب، انتهت الرحلة بسرعة، بالنسبة إلى راكيل هي أربعون ميلاً تفصل بين «نيوكاسل» و «روتشايد»، القرية الأقرب إلى «كلير هايتس». ومع ذلك، فقد اجتازتاها بساعة واحدة أو أكثر قليلاً، وعندما دخلت ليز إلى أملاك العائلة كانت الساعة تتعدّى التاسعة إلا ربعاً. وتذكرت راكيل الطريق المؤدي إلى المنزل. كانت تحتشد على جانبيه صيفاً أزهار الأضاليا القرمزية، ولكن في هذا الوقت من السنة، كان الضباب يهجم كثيفاً من المحيط، فيلف أوراق الشجر المتدلية.

ما إن لاح المنزل أمامهما حتى شعرت على الرغم منها بالارتياح. كانت ستائر المنزل مرفوعة، فتنساب من خلال النوافذ أنوار متألقة، تنشر الضياء على أرض الفناء. وعندما وقفت بهما السيارة، انفتح باب من خشب السنديان وبرز منه روبرت شارد الضخم الجسم.

كان الضباب يلف الطابق الأرضي، فلم تميز راكيل سوى نوافذ مستطيلة تتخايل فوق الباب الأمامي، ونباتات متسلقة تغطي الجدران وتمنحها لوناً أقرب إلى الوردي. أبصرت النافذتين الواسعتين البارزتين على جانبي الباب، كما لمحت لهب النيران المتصاعد من المدفأة مثلما وعدتها ليز تماماً. كانت تعرف أنه أمر لا خيار لها فيه لكنها استمرت تفكّر في مغبة حضورها.

- راكيل يا عزيزتي، أهلاً بك في منزلنا «كلير هايتس»، ما أشد سروري بحضورك! أليست هذه الليلة سيئة الجوّ؟.

قالت زوجته وهي تخرج من السيارة:

- كدت أصل متأخرة فالضباب كثيف للغاية.

وابتسمت لراكيل تخاطبها:

- من حسن الحظ أنك لم تحضري بالطائرة، إنني واثقة أن المطار مغلق.

عندما خرجت راكيل من السيارة، سمعت هدير أمواج المحيط،

فتسارعت خفقات قلبها. ردت التحية لروبرت بتوتر جاهدت في إخفائه وهي توافقه على أن الجوّ سيء حقاً. وبتوتر أيضاً، شكرته على دعوته لها.

قال روبرت شارد بحرارة وهو يتأملها:

ـ هذا من دواعي سرورنا، أتصور أن ليز أخبرتك بأننا استقبلنا زائراً غير متوقعاً، أظنها مفاجأة لك.

كان ذلك أقل ما يمكن أن يقال... ونظرت إلى والدة جيم وقالت:

ـ أشعر وكأنني متطفلة، إنني واثقة من أنني أفسدت متعتكم. لكانت أكبر لو أنني لم... لم أكن هنا.

قال روبرت رافضاً كلامها:

ـ كلام فارغ! لقد كنا متشوقين إلى زيارتك هذه، وإلى سماع أخبارك، أليس كذلك يا ليز؟ ولكن أدخلي الآن، هل حقائبك في صندوق السيارة؟

ـ نعم.

ـ حسناً، سأحضرها.

ترددت راكيل، لكن ليز تقدمت نحوها تتأبط ذراعها وتدفعها إلى الداخل، قائلة:

ـ هيا بنا، لا بد أن «ميزي» قد جهزت العشاء... أظنك جائعة الآن.

لكن راكيل لم تكن تشعر بشهية على الإطلاق، غير أنها لم تستطع أن تصرح بذلك، فرافقت ليز إلى ردهة المنزل والتوجس يسيطر عليها... أين جيم الآن؟ أتراه ينتظرهم في غرفة الجلوس المريحة حيث يجلسون أغلب الأوقات؟ أم هو قابع في السرير؟ وتملكها شعور أقرب إلى الخوف حين فكرت بمواجهته.

قالت ليز وهي تقف تحت الثريا الجميلة:

ـ اخلعي معطفك.

كانت القاعة التي يقفان فيها فسيحة، مكسوة جدرانها بالخشب القاتم اللون. أما أرضها فتغطيها سجادة ذات لون ذهبي باهت. وأبصرت سلماً

عريضاً متعرجاً تزيّنه نقوش كثيفة، يحتل قاع السلم حوض يحتوي على إناء ضخم فيه عدد كبير من الورود البيضاء والوردية اللون، فاح عطرها مع دخول روبرت حاملاً الحقيبتين بيديه، ومغلقاً الباب بكتفه.

وبينما راكيل تخلع معطفها الجلدي أطلت «ميزي أرمسترونغ» مدبرة المنزل من باب وراء السلم، فابتسمت عندما رأت الزائرة:

ـ حسناً، حسناً، يا لها من ليلة تأتين فيها، يكاد المرء يحسب أن الجوّ لا يصحو أبداً هنا.

ابتسمت لها راكيل وهي تناولها معطفها:

ـ كيف حالك يا سيدة أرمسترونغ؟ تبدين بصحة جيدة، لا يبدو أن حالة الجو تزعجك.

قال روبرت وهو يتجه نحو السلم:

ـ آه، لقد ولدت ميزي في هذا المكان ونشأت فيه. تعالي يا راكيل، سأريك غرفتك قبل تناول العشاء، أنا واثق من أنك ترغبين في غسل يديك وتسريح شعرك.

أومأت راكيل شاكرة تفهمه:

ـ نعم، إذا لم يكن لديك مانع.

قالت ذلك وهي تنظر بقلق إلى والدة جيم، فأومأت هذه برأسها وهي تهتف وقد بدا بعض التوتر في ملامحها:

ـ طبعاً ليس لديّ مانع، انزلي إلى غرفة الجلوس عندما تنتهين.

ـ شكراً لك.

ثم صعدت السلم خلف روبرت.

كانت فسحة السلم تحيط بالردهة من جانبيها. يمتد ممر منها نحو الاتجاهين المتعاكسين، ومنهما إلى جناحي المنزل المبني أواخر القرن الماضي.

كانت غرف المنزل تمتد في كل اتجاه من دون نظام، وهو يتألف من طابقين يرتفعان فوق مستوى الأرض وواحد أسفله... عاش آل «شارد»

في هذا البيت منذ خمسة وثلاثين عاماً، وأحدثوا فيه بعض التغييرات إذ أضافوا إليه التدفئة المركزية والحمامات، كما جددوا الأجهزة الكهربائية. لكن هيئة المكان لم تتغير، بل بقيت هي هي... ولطالما شعرت راكيل بالسعادة هنا، لكنها كانت تعزو ذلك إلى وجودها مع جيم... هكذا أخذت تفكر وهي تبعد من ذهنها المواجهة المرتقبة.

سار روبرت أمامها في الممر المتجه إلى الجناح الجنوبي من المنزل، وما إن فتح الباب وأشعل المصابيح حتى انبعثت الحياة في هذه الشقة الفسيحة. انبسطت تحت أقدامهم سجادة خضراء ناعمة تلائم الستائر المذهبة وغطاء السرير المنقوش. كان الأثاث مصنوعاً من خشب السنديان القاتم، ولاحظت راكيل أنه ما زال هو نفسه لم يتغير منذ زيارتها الأولى قبل عامين.

سألها روبرت وهو يضع الحقيبتين على الحامل المعد لهما أسفل السرير.

ـ هل تتذكرين هذا؟ لقد فكرنا في أنك ربما تحبين النوم هنا. خذي راحتك، إن طعام «ميزي» لن يتلف إذا انتظر عدة دقائق.

هزت راكيل رأسها وقد منعها دفق مشاعرها من الجواب ثم قالت:

ـ شكراً.

كان شكرها واضحاً في تألق عينيها، فتردد روبرت لحظة ثم قال وهو يبتسم بأسى:

ـ لم تتغيري أبداً، أليس كذلك؟ ما زلت ذلك اللغز الرائع الجمال يا راكيل، الفتاة الوحيدة التي عرفت كيف تهزم جيم. كم أتمنى لو أنه عرفك قبل أن تنشب فيه «بيتسي» مخالبها.

كان كلامه نابعاً من صميم قلبه، وكأنما أحس بذلك، فقد ابتعد قائلاً:

ـ سأراك فيما بعد.

ورفع يده وكأنه يعتذر، ثم أغلق الباب خلفه بسرعة قبل أن تجيب

بشيء.

عندما أصبحت راكيل وحدها، تنفست بعمق ثم أخذت تفكر. ما زالت تشعر بالضعف، وبالعجز بشكل ما. نظرت في مرآة الخزانة فلم تدخل صورتها الارتياح إلى نفسيتها، وقررت أنه من غير المناسب أن ترتدي ثوباً داكن اللون. كانت ما تزال تلبس القميص البني الداكن والبنطلون فوق الحذاء الجلدي... إذا كانت هذه الثياب عملية حديثة الطراز في لندن، فإنها هنا تبدو جافة خالية من الأنوثة، وتجرد وجهها من كل لون وتبرز تجويفي خدّيها.

ولكنها لا تملك وقتاً للتغيير، حملت أدوات الزينة إلى الحمام حيث غسلت وجهها بسرعة. كان جلدها بارداً لكن في داخلها نار تحترق. شدت على وجهها لعدة دقائق بالمنشفة، وهي تحدق في العينين الخضراوين الحزينتين اللتين تواجهانها. يا إلهي... كيف ستتحمل كل هذا؟ أخذت تتساءل بصمت، ثم ألقت بالمنشفة جانباً قبل أن تتغلب عليها مشاعرها.

كانت تعتقد أنها وحدها، لم تتصور قط أن جريان الماء في الحمام قد يغطي على وقع أقدام تدخل غرفتها، وفجأة لمحت رجلاً داكن اللون يقف في المدخل المؤدي إلى الحمام، فأجفلت وكأنها رأت شبحاً. ولكن ذلك الذي استدرك أمام ردة فعلها لم يكن شبحاً، بل رجلاً ينظر إليها من خلال عينين ضيقتين ساخرتين، فشعرت وكأن لطمة مفاجئة أصابتها.

قال يحييها بهدوء:

ـ مرحباً، يا راكيل. رأيت أنه من الأسهل أن نتغلب على صعوبة اللقاء الأول على انفراد. آسف إذا كنت قد أجفلتك لكنني لم أشأ أن أقاطع استغراقك الواضح في تأمل مظهرك.

* * *

٢ ـ لا شيء يُقال

تركت كلماته الساخرة في نفسها تأثيراً أليماً ذكّرها بآخر مواجهة لهما. كانت كلماته حينذاك لاذعة مليئة بالسخرية ويغلي فيها غضب جاهد في كبحه... عندما تذكرت نهاية تلك المواجهة، استحوذ عليها ذلك الشعور الخفي كما لو كانت تتوقع نهاية شيء ما.

عادت لتتكيء على المرآة ثم سألته وهي تمرّ بإصبعها على حاجبها:

ـ ماذا تريد يا جيم؟ كان من الأنسب أن نتواجه في حضور والديك، ولا أرى سبباً لأتبادل معك الحديث..

قالت ذلك بهدوء وقد سرّك لسيطرتها التامة على ارتجاف صوتها، فلتوضح له منذ البداية أن علاقتهما السابقة لا تعطيه أي حق بالأفضلية عليها.

ـ أتظنين ذلك؟ أحقاً علينا أن نتصرف كغريبين؟

كان صوت جيم منخفضاً فاتراً وخالياً من أي شعور.

ردّت عليه بحدة وهي تدرك تماماً أنها لن تستطيع تجنب النظر إليه:

ـ لكننا غريبان فعلاً، لقد سبق وأخبرتك بأنني لم أعرفك قط، والآن إذا كنت تسمح...

وتحركت تبغي تجاوزه، لكنه كان واقفاً يسدّ بقامته المدخل. وعلى الرغم منها، حدقت إلى قدميه المتباعدتين قليلاً فرأت بينهما العصا التي يستند إليها.

وشيئاً فشيئاً ارتفعت عيناها بحركة لا إرادية إلى بنطلونه البني اللون،

ثم تأملت قميصه الأخضر وقد فتح فوق الصدر فأبرز عنقه السمراء، تذكر جيداً هذا اللون الأسمر الذي يلوّح ملامح وجهه... ومع أنها فتاة طويلة القامة، إلاّ أنه أطول منها بكثير، فهو يبلغ الستة أقدام بقامته الضامرة التي تعود صلابتها إلى حياته الشاقة لا إلى مزاولته الألعاب الرياضية. لم يكن رجلاً وسيماً على وجه التحديد.. كان وجهه كجسمه صلباً لذا تراه بعيداً عن الوسامة لكنه كان جذاباً... أما عن هذه الجاذبية فاسألوا راكيل فهي تعرفها جيداً! لقد لامسها سحره هذا ذات مرة، وها هي تشعر به في هذه اللحظة، لكنها أصبحت تدرك الآن تلك الأنانية الكامنة خلف ذلك المظهر الجذاب، وكم احتقرت نفسها لوقوعها تحت تأثير تلك الجاذبية مجدداً.

سألته وهي تمرر نظراتها على زر قميصه الأوسط:

ـ هل تسمح لي بالمرور؟ أريد أن أضع على وجهي شيئاً من الزينة وأسرح شعري، كما أن أبويك ينتظران عشاءهما.

لم يتحرك جيم من مكانه، بل سألها وهو يمرر يده على وركه يدلكه:

ـ ألا تسألينني عن حالي وعما حدث لي؟ ألا تستفسرين عن الرصاصة التي في جسدي؟

ـ لا أرى في ذلك ما يهمني حقاً.

تلفظت بهذه الكلمات بقسوة، أطلقتها على عجلة ومن دون انتباه. كانت تتمنى فقط لو يبتعد عنها... لو أنها لا تنفرد به... لو تتخلص من هذا الموقف الصعب. ثم تابعت قائلة:

ـ لقد أخبرتني أمك بكل ما أحتاج إلى معرفته، قالت إنك نجوت من إصابتك كالعادة. دوماً لك حظ إبليس!

ـ تباً لك، يا راكيل!

أجفلتها الإدانة الخشنة في صوته، ونظرت بتوتر إلى عينيه البنيتين الغاضبتين بينما تابع قائلاً:

ـ هل لديك أية فكرة عن مبلغ الألم الذي عانيته في جرّ نفسي إلى هنا؟ تكبدت وجعي لكي لا تشعري بالحرج فقط لا غير، بينما تقفين أنت هنا

قائلة إن هذا لا يهمك؟ أيتها . .

ثم نطق بكلمة لا تقوى راكيل على تكرارها، ومع ذلك رفضت أن تشعر بالخوف مع أن شحوب وجهه البالغ أزعجها. لم يكن كاذباً حين قال إن الجهد الذي بذله للقدوم إليها قد أنهك قواه، وتحركت شفقتها رغم ما تشعر به من غضب ومرارة، ثم قالت بهدوء:

ـ ألا تظن أن حديثنا هذا قد طال؟ آسفة إن بدوت عديمة الإحساس، ولكنني آتية من رحلة طويلة وأنا مرهقة، كما أنني لم أكن أعلم أني سأواجهك في النهاية . . .

أجاب وهو يقترب منها على عصاه:

ـ إنك مرهقة! وأنت آسفة إذا بدوت عديمة الإحساس! أتظنينه تعويضاً كافياً على معاملتك هذه لي؟

ـ جيم، إسمع . . .

ـ كلا، بل اسمعيني أنت! لم أدخل إلى هنا لأتشاجر معك أو لأتسوّل شفقتك. جئت لأنني أعلم أن لقاءنا سيكون صعباً بالنسبة لك فأردت أن . . . أن أسهّل الطريق . . . ولكنك لم تحبذي هذه الطريقة، أليس كذلك؟ بل تريدين أن ترغميني على الدفاع عن نفسي، أن تعودي إلى كل تلك الشكاوى ضدّي، أن تخلقي بيننا ناراً تحول دون اتفاقنا معاً . . . آه، أعرف أنك رفضت الإجابة على اتصالاتي التليفونية، أو استلام أي من رسائلي، لكنني ظننت، ظننت حقاً، أن بإمكاننا أن نتحدث هنا سوياً.

ـ حسناً، كنت مخطئاً في ظنك.

لم تستطع راكيل أن تدع الأمر يمضي من دون أن تتحداه، ولكنها شعرت أنه رغم إصابته، كان ما يزال أقوى منها بكثير، وهتفت:

ـ جيم، ليس لدينا ما نقوله لبعضنا البعض.

تمتم:

ـ ليتك تشعرين بقوة نبضات قلبي؟ صدقيني ما كنت لآتيك لو أنني لم أعلم أنه ما زال بيننا ما يقال!.

ـ جيم . . .

حين رفعت رأسها إليه، بدا على وجهه العذاب الذي قرأت فيه هلاكها، وشعرت بالدوار وهي تفكر أن ما من رجل يستطيع التحكم بمشاعرها كجيم.

وفي لحظة جنون، تمنت لو تنسى الماضي، لكنها تنبهت لصوت ليز يعلو من أسفل السلم، وينادي بإلحاح:

ـ راكيل، عزيزتي، هل أنت قادمة؟

وسرعان ما طردت مرارة حواسها واستعادت تعقلها الهادىء . . . ثم سمعته يقول:

ـ لا تخافي، لن أحرجك.

ثم خرج بصعوبة ظاهرة من غرفتها. في الأسفل، كان روبرت قد سكب القهوة، فتناولت راكيل فنجاناً شاكرة، وهي تأمل أن يهدّىء أعصابها، كما رجت أن لا يلحظ روبرت وليز اضطرابها.

سأل روبرت راكيل عن رحلتها لكنه لم يحظ إلا بجواب مختصر، فقالت ليز:

ـ لا أدري هل يوافينا جيم، في الواقع لقد اقترح عليه الدكتور «مانينغ» أن يمضي بعض الوقت في السرير كي يلتئم جرحه، ولكنك تعرفين ما أعني . . . حسناً، إن جيم لا يصغي إلى أحد، من الأفضل أن تذهب وترى ماذا يفعل يا روبرت، لا يمكننا أن ندع «ميزي» تنتظر إلى ما لا نهاية.

قالت ذلك تتوسل إليه وعلى شفتيها ابتسامة محرجة.

ـ لا بأس.

نهض روبرت عن الأريكة حيث كان يجلس إلى جانب راكيل، ثم غادر الغرفة. فقالت ليز وهي تتنهد:

ـ هل أنت خائفة من مواجهة جيم، يا حبيبتي؟ ليس الأمر سهلاً بالنسبة إليك، أعلم ذلك. ولكنكما، أنت وجيم، إنسانان عاقلان وبإمكانكما أن تتقابلا كالأصدقاء، أليس كذلك؟

ـ إذا كان هذا . . ما . . ما يريده جيم .

فقالت ليز بحرارة :

ـ آه، أنا واثقة من ذلك، أظنه مسروراً لهذه الفرصة التي . . . حسناً، لإصلاح ما فسد .

لم تستطع راكيل أن تجيب، فقد انهارت حساباتها السابقة كلّها . . . كانت تظن أنها تملك القدرة على مواجهة جيم، لكن هل تستطيع اليوم أن تواجه نفسها؟ والأفظع أنه ما زال يحدث فيها ذلك التأثير البالغ!

قال روبرت وهو يعود إلى غرفة الجلوس بشيء من الارتياح :

ـ لن يحضر، فهو يفضل أن يتناول العشاء في غرفته . أظنه يتألم قليلاً، ولا يرغب في النزول إلى الطابق الأسفل .

عضت ليز شفتها ثم نظرت مترددة إلى وجه ضيفتهما المتوتر :

ـ آه، حسناً، ولكن ماذا عن راكيل؟ ألا يريد أن يرحّب بها؟

أجاب روبرت وهو يرى راكيل تهم بالإحتجاج :

ـ لقد طلب المعذرة هذا المساء، قائلاً إنه سيراها غداً، وأنا واثق أن الوقت حينذاك سيسمح لهما بذلك . والآن، هل نأكل؟ .

قُدم الطعام في غرفة تشرف على الصخور في القسم الخلفي من المنزل . كان هدير الأمواج يعلو وهي تتكسر فوق الصخور، أما الطعام فممتاز كالعادة . لكن راكيل لم تأكل إلا قليلاً، ثم قالت مخترقة الصمت :

ـ لا بد أن تتحسن شهيتي في ظلّ الهواء النقي هنا .

فابتسمت ليز متفهمة :

ـ أظنك بحاجة إلى وقت تستريحين فيه من عناء المفاجأة . لا تقلقي! كل شيء سينتهي على ما يرام . سترين .

ومع ذلك، فقد ملأها الارتياح عندما هربت إلى غرفتها فيما بعد . أغلقت بابها وهي تتمنى لو كان له مفتاح، لم يكن بإمكانها أن توصد الباب بكرسي إذ ما هو التفسير الذي تقدمه إلى ليز وروبرت لو أنهما اكتشفا هذا؟ وإلى جانب ذلك، إن جيم يعاني من ألمٍ مبرحٍ ومن غير المحتمل أن يأتي إلى غرفتها هذه الليلة .

بعد أن اغتسلت على عجل أطفأت النور ثم اندست بين الأغطية . كان الدفء لذيذاً ومريحاً . من الناحية الأخرى من المنزل تناهت إليها همهمة الأمواج توحي بالاسترخاء لكنها لم تستطع أن تنسى جيم حين كان إلى جانبها في آخر زيارة لها إلى «كلير هايتس» . وها هو مرة أخرى، لا تفصله عنها سوى خطوات في الممرّ . . .

نامت أخيراً، كان نومها خفيفاً تعترضه كوابيس مضطربة . إلا أنها استيقظت وهي تشعر بشيءٍ من الراحة . في الخارج بدا أن الضباب قد تلاشى وأن السماء تستعد لاستقبال صباح أكثر إشراقاً، أمضت راكيل للحظات تنظر إلى الضوء يتلاعب بين الستائر السميكة المسدلة، ثم نفضت عنها الأغطية وسارت لترى المنظر بنفسها .

كما توقعت، كان الضباب قد تبدّد، فأطلت من نافذتها وأرسلت نظرة إلى الحديقة أمام المنزل ثم تأملت قرية «روشايد» البعيدة .

في الأسفل تنبسط القرية بسطوحها وتزدان بأحجار القرميد الرمادية الصلبة، كما يرتفع برج الكنيسة فوق مجموعة من أشجار الصفصاف، أما الطريق المؤدية إلى القرية فتمتد خلف حاجز من الأشجار ثم تنسلل إلى الحقول . لقد بقي كل شيء كما تركته . قبل اليوم لم تكن تدرك كم تأصّلت هذه المناظر في ذاكرتها، هذا المنزل، وتلك القرية، والصخور التي تناجي النهر . . .

ارتجفت فجأة عندما اخترقت البرودة قميص نومها الرقيق، فعادت تندس تحت أغطية سريرها، وإذا بها تسمع طرقاً خفيفاً للغاية على بابها .

تصلّبت لبرهة، ثم أدركت أن جيم لا يعقل أن يكون الطارق، ففتحت فاها وقالت : أدخل . . .

عندها شُق الباب وظهرت ميزي التي هتفت :

ـ آه، هل أنت مستيقظة؟

ثم فتحت الباب على مصراعيه ودخلت بصينية الشاي :

ـ ظننتك ما زلت نائمة، وقد أوصتني السيدة شارد ألا أوقظك إذا كنت كذلك.

زال توتر راكيل:

ـ كنت أعاود التعرف إلى سحر الطبيعة فقط. . . آه! لشد ما أنا مشوقة إلى كوب شاي، خصوصاً من صنع يدك يا سيدة أرمسترونغ.

ـ أحقاً؟

قالت المرأة ذلك وقد ارتسم الشك في عينيها، لكن السرور ما لبث أن ظهر عليها، ثم جلست راكيل إلى جانب السرير ووضعت الصينية قربها.

ـ هل. . . هل استيقظ الجميع؟. . . كم الساعة الآن؟ يبدو أن ساعتي واقفة.

ـ إنها التاسعة إلا ربعاً. ألا تتدثرين بمعطفٍ أو ما شابه؟ ستموتين برداً في هذا القميص الشفاف.

ابتسمت راكيل وهي ترشف الشاي:

ـ حسناً، كنت أشعر بالبرد، لكن شايك أدفأني.

عبست ميزي وهي تقول:

ـ حسناً، ما دمت واثقة من ذلك. إن السيدة شارد في الطابق الأسفل تتناول الشاي في الغرفة الصباحية، حيث تفتح بريدها، لكن السيد شارد لم يستيقظ بعد وكذلك جيم.

ـ فهمت. . .

وعضت راكيل على شفتها بينما استطردت المرأة تقول:

ـ كان ذلك حدثاً نادراً، أليس كذلك؟ فمن الغريب أن يصاب جيم برصاصة في هذا الوقت بالذات ثم يعود إلى البيت بعكاز. يا ليتك رأيت وجه أمه حين دخل البيت وهو يعرج!

ـ يمكنني. . . يمكنني تصور ذلك.

ـ حسناً، نعم، لقد قدم إلى المكان المناسب، إلى بيته حيث يسهر على خدمته كل من يحب.

ـ طبعاً. . .

اشمأزت راكيل نقداً لها في طيات هذا الكلام بينما تابعت مدبرة المنزل تقول:

ـ وطبعاً كانت السيدة شارد قلقة بهذا الشأن خاصة أنك كنت قادمة لكنني قلت لها إن هذا بيت جيم، وإنك لا تتوقعين منها أن تأخذ مشاعرك في الحسبان في ظرف كهذا.

وضعت راكيل كوب الشاي جانباً وهي تقول:

ـ شكراً يا سيدة أرمسترونغ، كان هذا لذيذاً. . . هل تخبرين السيدة شارد أنني سأنزل بعد ربع ساعة؟

حملت المرأة الصينية ثم اتجهت إلى الباب.

ـ نعم، يا آنسة، إنك. . . إنك لم تتحدثي بعد إلى جيم، أليس كذلك؟ إنه في غرفته آخر الممرّ، إذا أحببت أن تذهبي إليه. . بعد أن ترتدي ثيابك طبعاً.

أبقت راكيل على ابتسامتها بصعوبة ثم قالت بتوتر:

ـ أتوقع أن أراه فيما بعد.

بدت خيبة الأمل على وجه مدبرة المنزل وقالت بإصرار:

ـ أنا واثقة من أنه يحب رؤيتك، يا آنسة وليامز. وهذه ليلة العيد كما تعلمين، عيد السلام والتمنيات الطيبة.

ـ شكراً يا سيدة أرمسترونغ.

ولم يكن رفض راكيل خفياً هذه المرة. فتركتها المرأة بهزة من كتفيها، وهي تشعر كما يبدو بأنها قامت بما عليها من أجل إصلاح الأمور.

بعد انصرافها، نهضت راكيل من السرير ودخلت الحمام. في الليلة السابقة أهملت النظر إلى ما يحيط بها أما الآن فقضت بعض الوقت تتأمل بإعجاب القرميد الذي يحيط بحوض الاستحمام. هفت نفسها إلى الاستحمام في الحوض، لكن الوقت سرقها فاكتفت بالدوش.

وبعد تفحص محتويات حقيبة ملابسها، ارتدت بنطلون جينز وقميصاً

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

قطنياً طويل الكمين، ثم انتعلت حذاءً «بوط» يصل إلى كاحلها. بعد ذلك وضعت على وجهها أقل ما يمكن من الزينة... أخيراً غادرت غرفتها قبل أن تفقد أعصابها.

في الممر المغطى بالسجاد، ترددت لحظة، وأخذت تعد الأبواب وصولاً إلى غرفة جيم. كان بابه نصف مفتوح وكأنه يدعوها للدخول، ولكنها لم تستسلم للإغراء، وساورها الشك: أهو الذي طلب إلى مدبرة المنزل أن تتحدث إليها؟ لكنها لن تعود إليه مهما تعرضت لضغوطات، هذا قرارها...

وبعد دقائق، دخلت راكيل الغرفة الصباحية فحيتها ليز ببشاشة. كما قالت مدبرة المنزل، بدت والدة جيم مستغرقة في قراءة رسائلها، فسارت راكيل إلى النافذة المستطيلة وحدقت بإعجاب صامت إلى مياه الخليج الرمادية اللون، وخلف الشرفة ذات الأعمدة الحجرية سرحت في المروج وهي تنحدر لتلامس الشاطىء الصخري. وقفت هكذا، فيما هدير البحر البعيد يتناهى إلى مسامعها.

استدارت عائدة إلى المائدة حيث جلست وتناولت صحيفة الصباح الملقاة إلى جانبها، فأخذت تتصفحها إلى أن ظهرت «ميزي» لتسألها عما تريد أن تأكل:

ـ لدينا سجقاً وكبداً وسمكاً مقدداً.

لكن راكيل هزت رأسها:

ـ أريد فقط قهوة وخبزاً محمصاً، آسفة فلا شهية لديّ.

قالت ليز وهي ترفع رأسها عن الرسائل:

ـ أتذكر أنك كنت تستمتعين بالطعام يا راكيل.

فاحمر وجه راكيل.

ـ كان ذلك منذ وقت طويل، يا ليز.

ردت ليز بحدة:

ـ ليس منذ وقت طويل، ألم تتعودي مشاركة جيم البيض واللحم في

آخر مرة كنتما هنا؟

جاء ذكر اسمه طبيعياً للغاية. ومع أن شيئاً من الفراغ تجلّى في وجه ليز بعد ذلك، إلا أن راكيل أرغمت نفسها على الإجابة من دون تردد:

ـ كنت أصغر سناً حينذاك، وعليّ أن أنتبه إلى قوامي هذه الأيام.

وتنهدت عابسة وهنا ارتفع صوت روبرت وهو يدخل الغرفة:

ـ كلام فارغ، فلنقم بذلك بدلاً عنك.

كان يبدو مرتاحاً تماماً في معطفه المنزلي الصوفي. انحنى يقبل وجنة زوجته، ثم جلس على كرسي بجانبها.

ـ يبدو عليك الارتياح.... هذا الصباح. هل نمت جيداً؟

لم تجد راكيل سبباً يدعوها إلى التحدث عن ليلتها المضطربة، فقالت:

ـ جيد جداً، شكراً، وشكراً لكلماتك الرقيقة.

ـ إنها الحقيقة، أؤكد لك.

وأمسك بيدها يرفعها إلى شفتيه، ثم يقول:

ـ هم. م. م. م... ما أجمل هذه الرائحة. ما هي؟ إنها تربكنا، نحن معشر الرجال... تجعلنا مساكين، مجانين.

فضحكت راكيل وقالت وهي تسحب يدها:

ـ إنها عطر تشارلي، في الواقع. وأنت مغازل قديم فمهلك، قد تظن ليز بك الظنون.

ـ آه، إنني اليوم أكبر سناً من أن أحاول تغييره.

قالت ليز ذلك بجفاء، ولكنها أرسلت إلى زوجها ابتسامة ذات معنى وبادلها هو بالمثل، ثم قال بعطف:

ـ لن تصبحي عجوزاً أبداً.

ثم نظر إلى «ميزي» غامزاً بعينه، وقال لها:

ـ أريد الطعام المعتاد نفسه، من فضلك. آه، ثم ذكري آندي فيما بعد بأنني أريد التحدث معه عن نبات الخيزران في «المستنبت الزجاجي».

أومأت «ميزي» برأسها قائلة:

- نعم، يا سيد شارد. أعليّ أن أحمل فطور جيم إلى غرفته؟ أم تظنه ينزل إلى هنا؟.

نظرت ليز إلى زوجها بضيق، فهز هذا كتفيه.

- أظن... ربما عليك أن تأخذيه إليه.

قالت ليز وهي تنظر إلى راكيل:

- لا مانع لديك في ذلك يا حبيبتي، أليس كذلك؟ إنه لا يقصد سوء الأدب، المسألة هي فقط...

- لا مانع لديّ أبداً...

سارعت راكيل تقول هذا، وهي ترغب قدر الإمكان أن تؤجّل لحظة المواجهة بينها وبين جيم في حضور والديه، وتنهدت ليز بارتياح ومضت تلقي على ميزي تعليماتها. وبينما مدبرة المنزل تغادر الغرفة قالت راكيل:

- إنه صباح جميل، أليس كذلك؟

كان آخر ما تريده أن تخسر التآلف الذي عاد يسود بينهم، فأجاب والد جيم:

- لعلك تحبين السير معي إلى القرية فيما بعد، أريد أن أذهب إلى الكاراج لإحضار بعض قطع الغيار للسيارة.

وافقت راكيل، لطالما حسدت جيم على والديه.. كانت أمها قد ماتت بحادث سيارة عقب ولادتها بقليل، فجاءت عمتها العانس لتشارك أخيها الأرمل منزله وأشرفت على تربيتها العمة كاترين... كانت راكيل في الخامسة عشرة وقد أصبحت على أتم استعداد لإدارة منزل أبيها فلم تستطع إكمال دراستها أو الذهاب إلى الجامعة، ولم يردعها أبوها كما لم يتعمد الوقوف في طريقها، لكنها كانت تعلم أنها لن تتخلى عنه أبداً. وهكذا تركت المدرسة وهي ما زالت في السادسة عشرة من عمرها، وبعد أن أمضت سنة في معهد للسكرتارية حصلت على وظيفة كطابعة في شركة تليفزيونية محلية، وهناك تعرفت إلى جيم وبدأ كل شيء... وحوّلت

راكيل افكارها بعيداً عن هذه الذكريات.

كانت ليز قد أفطرت مسبقاً، لكنها تناولت وراكيل فنجاناً من القهوة وخبزاً محمصاً، بعدئذٍ انتقلت المرأتان إلى غرفة الجلوس تاركين روبرت أمام طبقه المليء باللحم والكبد. وكانت هذه الحجرة مثل الغرفة الصباحية، تقع في الناحية الخلفية للمنزل، فجلست راكيل على الأريكة المستطيلة أمام النافذة البارزة إلى الخارج.

وضعت ليز الرسائل التي أهملها زوجها في مكتب صغير، وقالت أخيراً:

- والآن، سأرى ماذا علي أن أفعل.

قالت راكيل:

- هل يمكنني مساعدتك؟

كانت تتمنى لو تجد ما يشتت أفكارها المضطربة، فآخر ما تريده هو أن تجلس من دون عمل محاطة بالفراغ عندما ينزل جيم أخيراً إليها.

فقالت ليز:

- حسناً، بما أنك ذاهبة إلى القرية مع روبرت، يمكنك أن تحضري لي بعض الحاجيات من المتجر... إنه يكره أن يرتاد هذا المكان، فهو كما تعلمين محطة للأقاويل والشائعات، ستكون لهفة السيدة «دينيس» إلى الأسئلة كبيرة، خاصة إن هي علمت أن جيم في البيت.

قالت راكيل متشككة في أنهم سيتذكرونها:

- لا بأس، أكتبي قائمة بالحاجيات وسأتسوّق لك، وبعد ذلك أريد أن أقدم يد المساعدة في الأعمال المنزلية.

ابتسمت ليز:

- يا لك من فتاة طيبة يا راكيل، أنا أحبك جداً...

ربتت على وجنتها برقة وهي تتابع قائلة:

- إنني آسفة، فلو أن جيم يتمتع بحسن السلوك لجاء بنفسه وتحدث إليك. سأكلمه عندما أراه بهذا الشأن.

فقالت راكيل بارتباك:

ـ آه، كلا.. لا تفعلي! إنني راضية تماماً عن هذا الوضع، حقاً... صدقيني، لا... لا نملك، أنا وهو، ما نقوله لبعضنا البعض.

بدا على ليز شيء من الارتياب، لكنها قالت باسمة:

ـ إذا كنت تصرين على ذلك، لا بأس! سينصب «آندي» شجرة الميلاد في القاعة هذا الصباح، قد يمكنك مساعدتي في تزيينها قبل حضور روبين ونانسي.

طفح وجه راكيل بحماس جديد أما ليز فراحت تسأل ميزي عما يحتاجونه من القرية. عندما أصبحت راكيل وحدها أرسلت نظراتها إلى النافذة تتأمل طيور النورس تحوم فوق المياه، ثم تساءلت بشيء من التوجس كيف سيقدمها والد جيم إلى كنتهما.

كانت مستغرقة في هذه الأفكار عندما سمعت صوتاً يقطع عليها تأملاتها:

ـ حسناً، مرحباً يا آنسة وليامز! إنك الآنسة وليامز، أليس كذلك؟ تعلمين أننا لم نتقابل منذ وقت طويل، فلتسامحيني إذاً إن فشلت في التمييز بينك وبين فتاة أخرى.

استدارت راكيل لتواجه ذاك الذي يختصر عذابها... وأخذت تحدّق باستياء في وجه جيم الأسمر الساخر. كان واقفاً عند العتبة بالضبط، يشبه القرصان الشرير بالأسود الذي غمر قميصه وبنطلونه، ولوّن شعره اللامع.

سألته متوترة:

ـ أراك تظن نفسك مسلّياً للغاية، أليس كذلك؟ إن أردت أن توفر علي الإحراج بفكرتك هذه، فلا تتعب نفسك.

قال وهو يسير على السجادة متكئاً على عصاه:

ـ آه، كان هذا الليلة الماضية، لكنك رفضتني، أتذكرين؟ لهذا لا تلوميني إن تصرفت كما يناسبني.

ـ أليست هذه عادتك دوماً؟

ثم عادت تنظر من النافذة مترقبة. تصلب جسمها وهو يدنو منها ثم يلقي بنفسه على الأريكة بجانبها، وقال ساخراً:

ـ يا للسانك الحقود هذا يا (جدتي)!

ثم نظر إلى النافذة حيث كانت تنظر.

ـ هل تستعيدين ذكرى أيام السعادة الماضية؟

وضرب الجدار بعصاه.

ـ إنني أتذكر حين أمضينا عصر يوم لا ينسى، هنا.

قالت وهي تضغط على شفتيها:

ـ أنا لا أذكر ذلك... ظننتك سترتاح في غرفتك بينما تأخذ لك مدبرة المنزل الإفطار.

قال بعدم اكتراث:

ـ وهذا ما فعلت. لكنني لم أكن جائعاً، وبطبيعة الحال شعرت بالواجب يناديني إلى النزول لإداء مراسم الترحيب بسموك.

ـ ما كان عليك أن تزعج نفسك!

ـ هذا صحيح، لكن أبويّ لا يعرفان هذا، أليس كذلك؟

ـ يدهشني اهتمامك بالأمر.

كانت راكيل تعلم أنها تسيء التصرف، ولكن التوتر تملكها عند جلوسه بقربها.

وعادت تكمل:

ـ وعلى كل حال، فأنا خارجة حالاً مع أبيك للتنزه إلى.. إلى القرية، فلو أنك علمت، لأمكنك أن توفر على نفسك هذا الإزعاج.

ـ أكان يمكنني ذلك؟

والتفت ينظر إليها، فاندفع الدم إلى وجهها. كان قريباً جداً منها يكاد يلاصقها، وأحست به يتأملها من بين أهدابه السوداء الطويلة. أهدابه تلك، هي الشيء الوحيد الناعم في وجهه، ذاك الوجه الذي ينطق بالخشونة وبالرجولة معاً، وتذكرت كيف كانت تغيظه ساخرة من

أهدابه هذه.

ـ جيم، أرجوك...

أزعجتها حرارة لهجتها، لكنها لم تستطع تجنب ذلك. وبدأ الصراع في داخلها، كان عقلها يدفعها إلى إهمال تصرفاته، أما أحاسيسها فترد بشكل مخالف كلياً دوماً... كان له هذا التأثير عليها منذ البداية، وهذا ما يروّعها الآن.

سألها:

ـ ما الذي يخيفك؟ لماذا ترتجفين؟ أتراني أهدّد عالمك الصغير النقيّ ذاك الذي أنشأته حول نفسك؟

ـ أتعني بعد أن اكتشفت أنك متزوج؟

وقفت فجأة وقد أخذت الرجفة منها، لكنها سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها حين أشاحت بنظرها عنه.

هز جيم كتفيه من دون اكتراث وعاد يتكىء على النافذة بتكاسل أثار غيظها، ثم قال:

ـ لا بأس. ها إنك قد قلتها. كنت تريدين الإشارة إلى ذلك منذ مجيئك إلى هنا، حسناً، ها قد منحتك الفرصة الآن.

فقالت ساخطة:

ـ لا شيء يهمك، أليس كذلك؟

قال وهو ينظر إليها بخشونة:

ـ وهل يفترض ذلك؟

ـ ألا يهمك سوى إرضاء رغباتك؟

لوى جيم فمه ساخراً:

ـ هذه طريقة قديمة ولكنها تصف الأمر جيداً كما أظن.

ـ أنت... أنت...

ـ وغد؟

ووقف بمساعدة عكازه، ثم تقدم إلى جانبها وهو يتابع:

ـ وهذا وصف قديم جيد هو الآخر، يبدو لي أنك تتمسكين بمواقف رجعية.

انقبضت يدا راكيل:

ـ يا لك من... خنزير!

رد بابتسامة خبيثة:

ـ هذا أفضل حتى الآن، يلوح لك أمل، هذا إن سمحت لراكيل وليامز الحقيقية بأن تظهر للعيان.

ـ لست مضطرة إلى الاستماع لهذا...

ـ لماذا؟ أتراني أقترب من الحقيقة؟

ولكن خطوات اقتربت منهما فسكتت راكيل. وعندما دخلت ليز كانت راكيل قد ابتعدت عن جيم بمقدار اتساع الغرفة، ثم استغرقت في قراءة البطاقات الموضوعة على رف المدفأة.

ـ آه، ها قد اجتمعتما أخيراً؟

كان الارتياح واضحاً في لهجة ليز ولكنها أخذت تنقل نظراتها بين ابنها وراكيل وقد بدا الشك في ملامحها الجذابة.

قال جيم وهو يتحرك بانزعاج ملحوظ:

ـ كنا نتبادل حديثاً بالغ الأهمية.

هزت أمه رأسها ثم أشارت إلى كرسي وهي تهتف بقلق:

ـ إجلس، عليك بالمزيد من الراحة يا جيم، لقد قال الدكتور مانينغ إن التئام الجرح يستغرق وقتاً.

لوى جيم شفتيه، ولكنه عاد يلقي بثقله على الأريكة إلى جانب النافذة بشيء من الارتياح. وعندما ألقت راكيل نظرة نحوه، تملكها إحساس بالذنب لعنادها، وفطنت أنها لم تسأله عن حاله حتى الآن.

قالت ليز وهي تتظاهر بالبشاشة:

ـ هل أخبرتك راكيل عن ترقيتها يا جيم؟ إنها مساعدة مخرج الآن، أليس هذا مثيراً؟ من يعلم، قد تصبح مخرجة برامج يوماً ما.

قالت راكيل بتواضع: لا أظن ذلك.

قال جيم لأمه، وهو يرى ارتباك راكيل:

ـ إنها لا تملك طبعاً مناسباً لذلك، فهي صلبة في مثاليتها، ولا تتقدم مع الزمن، وعلى المخرجين أن يكونوا عصريين في نظرتهم إلى الأمور ومرنين، عليهم أن يدخلوا في روح أعمالهم، أن يعذروا أخطاء البشر ويبرّروها، كذلك هم بحاجة إلى التمييز بين الحقيقة والكذب.

فهتفت راكيل وهي لا تقدر أن تمنع نفسها من الرد بمرارة:

ـ وعليهم أن يكونوا واعين على صعيد علاقاتهم.

مال جيم برأسه ساخراً:

ـ وهذا أيضاً بالطبع.

قال ذلك بتهكم بالغ، فتمنت راكيل لو تمسح هذا الغرور الذي يسود ملامحه.

* * *

٣ ـ الصعود... نحو الهاوية

ـ آه، حسناً...

بللت ليز شفتيها بشيء من التوتر، فلطالما حرصت على تجنيبهما المشاكل ولكن ها هي قد عبثت، بلا قصد، بعش الزنابير، ثم نظرت إلى راكيل والتوسل في عينيها، وهي تتابع:

ـ لكلٍّ منا وجهة نظره الخاصة، أليس كذلك؟ لو كنت أكثر حكمة لما تحدثت عن ذلك أمام ابني، فهو لا يحب المخرجين.

ـ لا بأس في ذلك..

قالت راكيل هذا وقد عاد التعقل إلى نفسها، فندمت على زلة لسانها كما أسفت للحرج الذي أصاب تلك المرأة المسنّة، ثم تابعت قولها:

ـ من سوء الحظ... أننا، نحن الاثنين، نعمل في محطتي تليفزيون مختلفتين.

فقالت ليز وهي تنظر إلى ابنها مؤنبة:

ـ حسناً، إنني واثقة من أننا جميعاً بلا استثناء نتمنى لك النجاح في مهنتك، ما أروع أن تنجح امرأة في دنيا الرجال! يبدو أنهم عموماً ينظرون إلينا باستخفاف ولا يعتبروننا إلاّ غيبات مغفلات.

ـ هل فاتني شيء؟

سرعان ما غمر الارتياح راكيل وليز مع ظهور روبرت شارد في الوقت المناسب، فقد دخل الغرفة خلف زوجته وهو يرفع حاجبيه الأبيضين الكثيفين باتجاه ابنه خاصة أنه تلقى ذبذبات تشير إلى توتر الجوّ.

قالت ليز بسرعة تغير الموضوع قبل أن يتدخل:

ـ آه، كنا نتحدث عن عمل راكيل فقط. متى تغادران إلى القرية؟ ستحضر لي راكيل بعض الحاجيات من المتجر أثناء وجودك في الكاراج.

ـ فهمت.

التفت روبرت إلى ابنه، بينما نظرت ليز إلى جيم متوسلة، تناشده ألاّ يثير العداء الخامد مجدداً.

فاستجاب جيم لتضرعها الصامت ثم قال:

ـ أظنني سأصعد إلى غرفتي إذ تنتظرني بعض الأعمال، لن يصل روبين قبل الغداء أليس كذلك؟

فقالت أمه بلهفة:

ـ ليس قبل الثالثة، سأطلب... سأطلب من ميزي أن تحمل إليك القهوة فيما بعد، أتريد شيئاً آخر؟

نهض جيم واقفاً بمساعدة أبيه، ثم أرسل إلى راكيل نظرة قصيرة قبل أن يجيب أمه قائلاً:

ـ كلا.

ومرة أخرى شعرت راكيل أنه يعنيها بكلامه، بينما تابع قائلاً:

ـ أظنني أملك كلّ ما أحتاجه.

أطلق ابتسامة متوترة ثم غادر الغرفة بصعوبة.

انتظر روبرت إلى أن تردد صوت ابنها يصعد السلم بتثاقل، وعند ذلك هز رأسه وهو يتنهد بصوت خافت:

ـ يبدو عليه... الإكتئاب، والقهر... أتظنينه بخير؟ أتظنينه يخفي عنا شيئاً؟ لقد أجرى له الدكتور مانينغ فحصاً شاملاً، وحتى الآن أظهرت الفحوصات أن الإصابة في فخذه هي اصابته الوحيدة.

ضغطت ليز على شفتيها معاً، ثم قالت تطمئن زوجها:

ـ أنا واثقة من أنه بخير، إنه... حسناً، لا بد أنه صدم لرؤيته راكيل مرة أخرى. سيكون روبين هنا عند العصر، سيسر لرؤية أخيه، كما أن جيم

لم ير ابنة أخيه بعد.

ـ إنه ذنبي أنا في الحقيقة.

قالت راكيل هذا وهي تتنهد. وعلى الفور، سارعت ليز إلى الاحتجاج، إلا أن راكيل تابعت متجاهلة:

ـ لقد تجادلت وجيم، أنا واثقة أن الراحة ستغمركم جميعاً بعد رحيلي.

فتقدم روبرت إليها:

ـ لا أريد أن أسمع هذا الكلام. والآن، أصغي إلي، أيتها الشابة... لقد دعوناك إلى هنا وهذه هي نهاية الأمر، فإذا كان جيم قد اختار أن يرحل وأن يعرّض نفسه لإطلاق نار، ثم يأتي إلينا مجدداً من دون كلمة أو إنذار، فليس هذا بذنبنا ولا هو ذنبك بالتأكيد.

ـ لا أظنه اختار أن يعرض نفسه لإطلاق نار.

قالت راكيل هذا برقة، لكن روبرت هز كتفيها برفق، ثم نظر إلى زوجته وقال:

ـ أنت باقية هنا، أليس كذلك يا ليز؟ استعدّي إذن يا راكيل وارتدي معطفك لكي نذهب إلى القرية.

أطلقت راكيل نفساً مرتجفاً:

ـ لا بأس.

فتركها روبرت وهو يقول:

ـ هذا حسن، ولا تتأخري، فأنا لا أسير الآن بالسرعة التي اعتدتها.

كانت النزهة إلى القرية منعشة ومنشطة، فقد ملأ الارتياح قلب راكيل حالما ابتعدا عن المنزل. أخذت الريح تتلاعب بخصلات شعرها وتطيّرها نحو عينيها، أما البرد القارس فبعث الحياة في وجنتيها ونفخ فيهما لوناً جديداً فتبدد القلق الذي تملكها طوال الساعات القليلة الأخيرة.

سألها روبرت وهما يتسلقان السياج لكي يختصرا الطريق عبر الحقل:

ـ لقد جئت إلى هنا من قبل، أليس كذلك؟

فأومأت راكيل برأسها قائلة:

ـ مع جيم.

تعمدت ذكر اسمه في حديثهما، فأخذ روبرت يتأملها وهو يساعدها للوصول إلى الحقل؛ ثم قال:

ـ لا بد أن ذلك يعود إلى أكثر من عامين.

فقالت:

ـ سنتان ونصف، في الواقع.

فهز روبرت رأسه:

ـ سنتان ونصف... لا يبدو لي هذا وقتاً طويلاً، في الحقيقة. إذن لا بد أن عمرك الآن... ماذا؟ واحد وعشرون؟ اثنان وعشرون؟

فقالت بابتسامة صغيرة:

ـ بل ثلاثة وعشرون، في الواقع.

قال بابتسامة عريضة:

ـ ثلاثة وعشرون! يا ليت العمر يعود بي ثانية إلى الثالثة والعشرين. إذن، لا بد أن جيم الآن في الثانية والثلاثين، أليس كذلك؟ هل يكبرك بتسع سنوات؟ لقد نسيت.

وافقته قائلة وهي تدس يديها في جيبي معطفها:

ـ اثنان وثلاثون. لقد عرفته... منذ خمس سنوات تقريباً... فعلاً، إنها خمس سنوات مرّت منذ بدء تعارفنا.

ـ في الإستديوهات.

فأومأت بالإيجاب... إنها لا تمانع التحدث عن كل هذا مع والد جيم، ربما لعلمها أنه لا ينحيّز إلى أي من الطرفين.

إلتفت إليها قائلاً:

ـ لكنك تعملين الآن في استديو مختلف، أليس كذلك؟ ألم تقل ليز إنك حصلت على ترقية؟

ـ حسناً، نعم، لكنني غيرت الإستديوهات منذ عامين...

ـ بعد الانفصال؟

ـ نعم.

ـ هذا أمر مؤسف، أعني تغييرك العمل، ظننتك أحببت عملك في شركة «لندن وستوورد»... أما كان بإمكانك البقاء حيث كنت؟

أخذت راكيل تفكر وهي ترتجف بالرغم منها، فهذا يعني مصادفة جيم في أي ساعة من ساعات النهار. آه، كلا! ما كانت لتقوى على ذلك، خاصة في البداية حين كان الجرح لا يزال ينزف، كما كانت ضعيفة للغاية.

سألته وهي تشير عبر الحقل:

ـ أليس ذلك منزل راعي الأبرشية؟

ـ نعم، هو منزل «كونواي» الريفي، هل تأتين معي لرؤيته؟ أم تفضلين متابعة الطريق؟

ـ آه، بل أفضل متابعة طريقي، إذا لم يكن لديك مانع.

قالت ذلك لا تريد أن تقدم مزيداً من الإيضاحات للقسيس الذي كان يقطن هنا قبل علاقتها بجيم. وهكذا افترق روبرت عنها قائلاً إنه سيراها في الكاراج بعد نصف ساعة.

كان الكاراج يقع بعد شارع القرية الرئيسي مباشرة، وحين وصلت راكيل إليه كان روبرت لم يأتِ بعد. نظرت حولها فلم ترَ سوى غلام منهمك بتغيير إطار عجلة «لاندروفر» قديمة، وفجأة خرج شاب من تحت سيارة كان مكباً على إصلاحها، فسألها عما تريد.

كان الشاب جذاباً حتى بملابسه الملطخة بالزيت، فشعرت راكيل بالارتياح لرؤية رجل لا تربطه بحياتها صلة، ثم ردت على ابتسامة الإعجاب التي منحها لها.

قالت له وهي تنظر حولها:

ـ إنني، في الواقع، أبحث عن السيد شارد. يبدو أنه لم يصل بعد، أليس كذلك؟ من المفترض أن أوافيه إلى هنا.

ـ أنت تنتظرين السيد شارد، من «كلير هايتس»؟

ـ نعم.

أجالت راكيل بنظرها تبحث عن مكان لسلتها الثقيلة التي تحملها، ثم تابعت:

ـ قال إنه سيلاقيني هنا عند.. منذ خمس دقائق في الواقع. لكن يبدو أن القسيس قد أخّره.

ـ فهمت، هل تحبين الانتظار في المكتب، يا آنسة...

أجابت بجفاء:

ـ آنسة وليامز، ونعم. إذا لم يكن لديك مانع، إنني أفضل الإنتظار داخل غرفة سميكة الجدران، فالبرد قارس على الرغم من سطوع الشمس.

ـ لا بأس، اتبعيني من هذا الطريق.

أخذ السلة من يدها ثم سار أمامها حتى دخلا غرفة مكتب ملحقة بمبنى الكاراج ويعمّها بعض الفوضى. وضع سلتها على المكتب ثم أشعل المدفأة الكهربائية وقال:

ـ هذا كاراج أبي، أنا «تيري مارشال»، إنني أدير له الكاراج.

ثم قدم إليها كرسياً، فجلست باسمة وقالت:

ـ مرحباً، لم أحضر إلى هنا من قبل. هل تسكن في الجوار منذ وقت طويل؟

فقال عابساً:

ـ طوال حياتي فقط. لكنك لا تسكنين هنا، أليس كذلك؟ لم أرك من قبل، وإلا لعلقت في ذاكرتي بالتأكيد، صدقيني.

قالت ضاحكة: «شكراً لك».

ـ لست زوجة روبين؟ أليس كذلك؟ وعلى ما أعلم، لست زوجة جيم أيضاً.

فقالت برزانة:

ـ كلا، إنني... حسناً، أنا صديقة للأسرة فقط.

ـ لعلك تقضين الميلاد هنا؟

ـ نعم.

أخذ ينظر إليها مفكراً.

ـ لا يعقل أن تكون فتاة مثلك من هذه المنطقة.

استعادت راكيل هدوءها وهي تقول:

ـ أنا واثقة من أن فتيات هذه المنطقة لن يعجبن بقولك هذا.

ثم رأت روبرت قادماً من الشارع الرئيسي. ابتسم حين رآها واتجه نحوها يجرّ خطوات واسعة وقد بدا عليه الخجل.

قال لها تيري وهما يغادران:

ـ لعلّي أراك مرة أخرى.

فنظر روبرت إلى راكيل مقطباً جبينه، بينما ردت هي على الشاب:

ـ ربما.

وأخذت تنقل خطواتها بحذر إلى حيث كان الغلام يغيّر إطار العجلة، ثم تبادلت مع روبرت نظرة ذات معنى، وعندما أصبحا على الطريق العام قال لها وهو يأخذ السلة من يدها:

ـ ها أنت قد غزوت قلب الشاب، وأظنك اعتدت على هذا، لست بحاجة إلى نصيحتي بعد اليوم.

أجابت وقد احمر وجهها:

ـ تحدثنا معاً أثناء انتظاري لك، يبدو لي غير مؤذٍ.

فقال والد جيم بجفاء:

ـ حسناً، ولكنني لا أنصحك بالتورط معه، فهو يخال نفسه زير نساء في هذه المنطقة.

هزت كتفيها:

ـ ظننت ذلك، ولكن لا تخف يا روبرت، فهو ليس من النوع الذي يعجبني.

قال بارتياح:

ـ أنا مسرور لسماع هذا.

وما إن قال ذلك، حتى غمرها شعور بالرضا أثار فيها عجباً كبيراً.

ولّد الهواء الطلق الانتعاش في راكيل، فجلست إلى المائدة تتناول الغداء. إلى جانبها كان جيم، شاحباً على غير عادته. بدا شحوبه مخيفاً، غير طبيعي وباعثاً للقلق.

ومع ذلك فقد حاول التصرف بشكل طبيعي مع أمه وأبيه، بدا متزناً وعلى شيء من التعقل مما بعث الارتياح فيهما. وحين سألته راكيل عن صحته، أجابها من دون أي أثر للتهكم بأنه أفضل حالاً بكثير، لكنه بدا لها غير صادق تماماً في تأكيده.

وعندما انتهى الطعام، اقترحت ليز أن تعمل، هي وراكيل، على تزيين شجرة الميلاد... كان آندي، زوج ميزي، قد أشرف على وضعها في القاعة، وهو إلى جانب ذلك يعمل كبستاني ويساعد في قضاء حاجيات المنزل. ومع أن الشجرة اكتست باللون الأخضر إلا أنها بدت عارية من كل شيء، فعزمت ليز على أن تكسوها بالزينة قبل وصول إبنها وأسرته، فجهزت الصندوق الذي يحتوي على الزينات المطلوبة كلها وسرت راكيل لأنها ستشغل نفسها حتى العصر.

توارى روبرت في الداخل معتذراً بعمله مع آندي، أما ليز فسارعت إلى المطبخ لتلبي نداء ميزي للمساعدة، وهكذا بقيت راكيل وحدها تزين الشجرة. لم تعلم أين ذهب جيم، وتكهنت بأنه قد عاد إلى كتاباته، لكنها دهشت لمّا رأته يخرج من المكتبة.

عندما رأى دهشتها، أجاب وهو يشير إلى كتاب بين يديه:

ـ إنه مرجع، أراك مشغولة، هل تريدين مساعدة؟

ـ منك أنت؟

لم تستطع راكيل إخفاء التوتر في صوتها، فزفر جيم بسأم، ثم قال بفتور:

ـ نعم. مني أنا، كان هذا اقتراحاً بريئاً لا غير، فانسيه! من الواضح

أنك لن تقبلي بذلك.

أوشكت الكلمات أن تفلت من بين شفتيها. كانت تريد أن ترد عليه: «نعم لن أقبل»، لكنها كبحت عنادها. عليها أن تكون مهذبة مع جيم، وفاءً منها للوعد الذي قطعته لليز وروبرت على الأقل، فابتلعت سخطها وقالت بتصلب:

ـ تستطيع المساعدة إن شئت ذلك طبعاً، لكنني... لكنني ظننت أنك تفضل إراحة ساقك..

نظر إليها جيم بارتياب، ثم هتف:

ـ لا تبدئي! يمكنني رعاية نفسي.

وضع كتابه على المنضدة، ثم نظر حوله:

ـ ماذا تريدينني أن أفعل؟

بللت راكيل شفتيها:

ـ يمكنك المساعدة في التزيين.

ثم سحبت السلم المتنقل الذي أحضرته ليز، ووضعته قريباً من الشجرة.

ـ ما كنت لأظن أن هذا مكانك، في الحقيقة. ألا تقضي هذه المناسبة، في العادة، خارج البلاد؟

افترش جيم الأرض، بينما وضعت هي النجمة على القمة، ثم قال:

ـ الانقلابات تحدث دوماً أيام العطلات العامة الكبرى، وبما أنني أهتم بتغطية الحوادث، لا نمضي أي مناسبة معاً على الأطلاق، إن كان هذا ما تعنينه.

صعدت درجات السلم بحذر وهي مسرورة لأنها فضلت ارتداء بنطلون على تنورة ثم قالت:

ـ أعلم هذا، أتبدو هذه النجمة جميلة؟ أم الأفضل أن أستبدلها بجنية؟

التوت شفتا جيم بابتسامة لا أثر فيها للسخرية أو الغرور ثم أجاب:

ـ لا أملك جواباً لهذا.

قال ذلك وعيناه تتراقصان فخفق قلبها وأدركت كم يؤثر عليها من دون أن يدري.

كان النظر إلى أعلى الشجرة أقل خطراً بكثير من النظر إليه فرفعت رأسها عالياً بينما عبس هو قائلاً:

- النجم يبدو جميلاً جداً، تعالي ألقي نظرة إلى هذه الزينة الملوّنة، ماذا تريدين بعد هذا؟

كانت تريد أن تبتعد عنه قدر إمكانها، لكنها كتمت شعورها وركعت بجانبه تنظر إلى الزينة في يده.

كانت عبارة عن حلقة فضية و «مهرّج» ملون معلق بها، وما إن رأتها حتى أطلقت شهقة سرور كبيرة وهي تهتف:

- آه، أليست هذه جميلة؟ لم أر مثلها قبلاً.

ومدت يدها لتلمسها إلا أنها سرعان ما سحبتها بسرعة.

قال جيم مفكراً:

- إنها جميلة حقاً، أليس كذلك؟ لقد ابتعت «دزينة» منها عند زيارتي لهونغ كونغ منذ خمس سنوات. كنت أعدّ تقريراً عن اللاجئين من فييتنام.

قاطعته بتوتر: أعلم هذا.

فرماها بنظرة جانبية، ثم قال مقطباً جبينه:

- طبعاً، فقد كنت تعملين معي، أليس كذلك؟ كان شهرك الأول في الشركة التليفزيونية تلك...

أخرجت راكيل من العلبة الملقاة إلى جانبه عدداً من الحلقات ثم شرعت في تعليقها بتوتر.

- هل تعلق أمك هذه الزينة كلها على الشجرة؟ أراها كثيرة جداً.

- استعملي ما ترينه ضرورياً فقط. أرى أن تستخدمي السلم، بينما أهتم أنا بالأغصان السفلى. آسف إن بدوت عديم الشهامة، ولكن لا أظنني قادراً على تسلق السلم حالياً.

نظرت إليه وقالت باحتجاج:

- لا حاجة بك إلى النهوض... يمكنني القيام بذلك، صدقني، لم أكن ألمّح إلى المساعدة، أو ما شابه، كنت فقط...

- أنا لست عاجزاً.

قالها بحدة واختصار ثم وقف على ركبته السليمة ودفع بنفسه إلى الأعلى، فيما بقيت ساقه المصابة مستقيمة.

- أرأيت؟ ليس بمشكلة، والآن ماذا تريدينني أن أعمل؟

فقدت راكيل الثقة بنفسها، فوقوفه أمامها يشعرها بالرهبة.

ناولته الكرات الزجاجية التي كانت تحملها، ثم قالت:

- خذ بعضاً من هذه، لا بدّ أنك تعلم ما يترتب عليك فعله.

أجابها بجفاء:

- لطالما ظننت ذلك.

فأسرعت ترتقي السلم قبل أن تسمع منه المزيد.

كانا يعملان والصمت يطبق عليهما، وفجأة قطعت والدة جيم حبل السكون. بدت مسرعة، لكنها ما إن وصلت حتى تسمرت في مكانها.

نظرت إلى راكيل بذهن غائب، كانت هذه على السلم، ثم اجتاحتها الصدمة عندما رأت ابنها واقفاً إلى جانب الشجرة.

هتفت: جيم!

ثم نظرت إلى راكيل.

- حسناً، ما أحسن هذا المنظر! لم أدرك أنك تساعدها يا جيم.

قال مازحاً:

- لم أكن أعلم أنني أساعد، لكنني أحاول ذلك... وهذا هو المهم، أليس كذلك؟

ألقت أمه نظرة إلى عينيه الهازلتين، ثم هزت رأسها وتحولت إلى راكيل:

- حسناً، يبدو هذا جميلاً يا حبيبتي.

لكنها ما لبثت أن هتفت:

www.liilas.com/vb3

ـ الأضواء، يا راكيل... لقد نسيت الأضواء، آه، يا عزيزتي! كان يجب وضعها أولاً.

تراخت راكيل على قمة السلم، محنية الكتفين وهي تقول بضعف:

ـ آه، كلا! لم أفكر في الأضواء، أين هي؟

ـ حسناً، إنها في صندوقها في مكان ما.

قالت ليز ذلك وهي تبحث بين صناديق الزينة التي فتحها ابنها.

وبينما كانت تحني ظهرها، أرسل جيم إلى راكيل نظرة، قابلتها هي بالعبوس. لكن ابتسامة لا إرادية لاحت على شفتيها عندما هتفت ليز بانتصار:

ـ وجدتها!

فقال جيم وهو يأخذ الصندوق من يدها:

ـ ستثبتها، لا أظنها مشكلة إذا وضعناها في وسط الشجرة هذه المرة. دعيها لنا يا أماه، إن راكيل خبيرة في الحفاظ على توازنها فوق السلم.

ـ أحقاً يا راكيل؟

سألتها ليز ذلك، فتجاهلت راكيل سخرية جيم ثم اعترفت مبتسمة:

ـ كلا.

ـ ولكن دعيها... سأ... ستتمكن من وضعها.

ـ آه، هذا حسن...

قالت ليز ذلك، بعد أن اطمأنت إلى تعاونهما، ثم خرجت متذرعة بحاجتها للاطمئنان إلى غرف النوم.

جذب جيم الحبل المذكور من الصندوق بينما ارتفعت راكيل على السلم بحذر.

قال لها جيم:

ـ حسناً، أمسكي بطرف هذا الحبل، سنقيس طوله.

ـ لا بأس.

أمسكت راكيل بطرف الحبل بيد ثابتة بينما أخذ جيم يفحص الباقي.

ثم قال:

ـ لو ربطت هذا خلف النجم الرابض على قمة الشجرة، لأمكننا حينذاك أن نقسّم البقية بشكل متساوٍ. خذي، هل يمكنك ذلك؟

ـ سأحاول...

وارتسمت تكشيرة صغيرة على وجه راكيل إذ جمعت في يدها طرفي الحبل، بينما تملكها الارتباك وهي ترى مجموعة اللمبات قرب قدميها، كانت خائفة من أن تخطىء فتدوس على أحدها.

قال جيم:

ـ لا تخافي! تابعي عملك. سأرفعها إليك ممسكاً بها.

ـ شكراً.

التفتت راكيل قليلاً، لكنها كانت خائفة... أفلتت من يدها عدة لمبات تدحرجت إلى أسفل درجات السلم حيث ستضع قدمها، ثم فقدت توازنها على ساق واحدة، وكان عليها أن تجد بسرعة شيئاً آخر تقف عليه.

اختارت أن تعود إلى الخلف وقد نسيت تماماً أن جيم يقف خلفها، وما إن أنزلت قدمها إلى الأسفل حتى أدركت أنها ألقت بثقلها على ساقه المصابة... أطلق شتيمة مختنقة وتراجع تلقائياً إلى الوراء، أفقدتها حركته المفاجئة هذه كامل توازنها... شعرت بنفسها تهوي وعندما حاولت أن تستنجد بشيء، اندفعت إلى جيم فلم يجد فرصة ينقذ بها نفسه. وهكذا وقعا معاً في كتلة متشابكة من الحبال الكهربائية واللمبات الملوّنة، فاصطدم رأس راكيل بالأرض واستلقت لعدة لحظات فيما الذهول يلفها من رأسها إلى أخمص قدميها. أما جيم فخرّ بجانبها بينما أطرافها نصف مسجونة تحت ثقل جسمه، وبما أنه استعمل ذراعيه لحماية نفسه، فقد كان رأسه أفضل حظاً منها.

بعدما استفاق من الصدمة، أخذ يرفع نفسه على يديه ثم التفت إلى جانبه. نظر إلى وجهها الشاحب المذهول، فسارع يقول:

ـ يا إلهي، هل أنت بخير؟ هل آلمتك؟ أنا آسف، لم أستطع

مساعدتك بهذه الساق اللعينة.

ابتلعت ريقها بصعوبة، وهي تبلل شفتيها بلسانها:

ـ ساقك؟.. أنا آسفة، كان ذلك ذنبي، لا بد أنك تتألم.

ـ آه، أنا أتألم فعلاً... لقد تفتّحت جراحي.

لكنها أدركت فجأة أنه ما كان يتحدث عن ساقه المصابة، واكتشفت أن قربه منها يبعث فيه تأثيراً خاصاً. نظرت إلى عينيه فقرأت فيهما خطراً تتخبط فيه آلاف المشاعر العنيفة.

تغلغلت إلى مسامها حرارة مشاعره واستبد بها اضطراب عنيف، لقد عرفت الآن كم هو متأثر بها واستحوذ عليها هي أيضاً سحره الغامض...

اكتشفت راكيل فجأة أن مشاعرها ما زالت هي هي لكنها استمرت تكافح مشاعرها، ما أصعب تحديد الخط الدقيق بين الحب والكراهية! أوهن قربه قواها، وجعل دمها يتسارع في عروقها، وشعرت برغبة في الاستسلام.

هنا فقط، تملكت الثورة راكيل.. عليها التغلب على نفسها فأسرعت بالنهوض، ولكنها أثناء وقوفها ضربت كاحله بجزمتها.

وفي هذه اللحظة رنّ جرس الباب فاستدارت مجفلة، ارتفعت يدها تلقائياً إلى شعرها. ظنت في البداية أن الرنين في رأسها، فأخذ قلبها يدق بعنف. ولكن عندما بادر جيم إلى الوقوف بصعوبة، وقد تحامل على الألم، أدركت أن ظنّها قد انقلب إلى حقيقة واقعة.

قال بمرارة:

ـ أنقذك جرس الباب. اذهبي وافتحيه.

نظرت إليه بتعاسة وهي تعض شفتها:

ـ هل... هل أنت بخير؟

سألته بتضرع وقد آلمتها إمارات العذاب على ملامحه، فهز كتفيه من دون اكتراث وفي عينيه نظرة قاسية:

ـ وهل هذا يهمك؟ افتحي الباب بحق الله! يمكننا متابعة (عملنا) في

وقت آخر. فنحن لا نُقاطع كل يوم صدقيني.

قالت وهي ترتجف:

ـ لماذا لا تدعني وشأني؟

ـ لأنني عديم الضمير، هي كلماتك وليست كلماتي.. هل نسيت؟

وعاد الجرس إلى الرنين.

ـ هل يمكنك أن تفتحي الباب يا راكيل؟

كان هذا صوت ليز. تردد إليها من على قمة السلم يتخلله شيء من الاضطراب، فلم تستطع راكيل أن تتأخر أكثر من ذلك، لوحت بيدها معتذرة، ثم أسرعت لتفتح الباب، لتتراجع بارتباك وهي ترى أخا جيم الأصغر يدخل دافعاً الباب بكتفه محتجاً:

ـ البرد قارس في الخارج.

ومرّ بجانبها ليلقي بعربة طفل مطوية ومهد متنقل في وسط الغرفة، ثم رأى جيم فقال بابتسامة عريضة:

ـ يا إلهي! ما الذي تفعله على الأرض؟ أتلعب لعبة الكهربائي؟

أزاح جيم الحبل جانباً، ثم جاهد ليقف. ولكن الألم في ساقه بات واضحاً أكثر من ذي قبل، فعاد يتهالك على الأرض مكشراً مشمئزاً من ضعفه.

ـ هات يدك...

مدّ روبين يده إليه في الوقت الذي أطلت امرأة شابة من الباب تحمل طفلة بين ذراعيها، فاستدار ليكلمها بينما مدّ جيم يده إلى عصاه.

عند ذلك رأى الفتاة الواقفة عند الباب، فهتف بسرعة:

ـ راكيل... إنني أراك حقيقة... أراك كما أعيش وأتنفس.

وفجأة نظر إلى أخيه غير مصدق قبل أن يتوجه نحوها...

ـ راكيل!

وبرقة، ليست رقة أخ على وجه التحديد، سلم عليها، ثم تابع متمتماً:

ـ ماذا تفعلين معه؟

ـ روبين، هل لك أن تحمل ليز من فضلك؟

قاطعهما صوت يشوبه نوع من الشراسة، فابتعدت راكيل عنه بسرعة، ثم تقدمت نحو المرأة الشابة ومدّت ذراعيها تقول:

ـ دعيني أحملها عنك.

لطالما كرهت نانسي أن تسلم طفلتها إلى امرأة غريبة، ولكنها قررت أن هذا أهون الشرين.

بعد ذلك أدخل زوجها الحقيبتين صافقاً الباب خلفه، إلا أنه سرعان ما اعتذر بتكشيرة خجلة.

نزلت ليز من الطابق الأعلى ورحبت بالجميع ترحيباً حاراً، أما راكيل فنظرت إلى ابنة روبين التي تنام بهدوء. كانت ملامحها الهادئة نسخة مصغرة عن ملامح جدتها ليز، لكن بشرتها البيضاء تذكر بأمها نانسي، فزوجة روبين شقراء بطبيعتها، تتمتع بامتلاء جميل يعقب غالباً الولادة، ولاحظت راكيل أنها قد اعتادت على أن تكون محط الأنظار أيضاً، وأنها تكره أن تغتصب كنّة أخرى مركزها لدى آل شارد.

أحست راكيل بيد على كتفها، فأجفلت وأبعدت رأسها عن رأس جيم ساخطة أما هو فقال:

ـ كم يناسبك أن تكوني أماً، كان يجب أن أتزوجك وأجعلك أمّاً.

ارتجفت شفتا راكيل:

ـ كما فعلت لبيتسي؟

همست بذلك ببرودة، ثم أجفلت حين ضغطت أصابعه على عظمها الرقيق، وقال بصوت منخفض:

ـ خلافاً لتخميناتك الحقيرة، لم أكن مسؤولاً عن حمل بيتسي، ولو كنت تملكين ذرة عقل لأدركت ذلك!

ضغطت راكيل على شفتيها بشدة: مسكينة بيتسي!

نطق جيم بكلمة بذيئة لم يسمعها سواها، ثم ابتعد عنها متوتراً عندما

جاءت أمه لتأخذ الطفلة من راكيل، وهي تسأل جيم مداعبة:

ـ هل كنت تنظر إلى ابنة أخيك يا عزيزي؟ أليست هي أجمل طفلة وقعت عليها العين؟

ردّ جيم وملامحه الصارمة تفصح عن الألم الداخلي الذي يعانيه:

ـ إنها أنثى، وأنا لا أصلح حكماً على أنثى.

فألقى روبين نظرة ذات معنى على راكيل قبل أن تشيح هذه بوجهها.

* * *

٤ ـ غروب السعادة

كان فجر الميلاد قد بزغ وراكيل لمّا تأوِ إلى فراشها بعد، فاستعدّ والدا جيم كعادتهما لحضور الاحتفال في الكنيسة.

لكن جيم تخلف عن العائلة متحججاً بجرحه... أكان سيحضر على أية حال؟ شكت راكيل في ذلك. فحسب علمها، لقد دخل المكتبة بعد العشاء مع أبيه وروبين. فيما بعد قرص الجوع معدة روبين فخرج ملتمساً سندويشاً، تاركاً جيم يمضي إلى سريره.

ـ ذكر شيئاً عن العمل...

تلفظ روبين بذلك بكآبة ثم أجلس زوجته على إحدى الأرائك في غرفة الجلوس وهو يتابع قائلاً:

ـ حاولت أن أقنعه بأنه الميلاد، وأن الناس لا يعملون ليلة الميلاد فأجابني أن ذلك يعتمد على نوع العمل نفسه.

وأردفت أمه برقة:

ـ هذا صحيح يا روبين، سيتوفر لك الكثير من الوقت لتتحدث إليه غداً، وسأصرّ بنفسي على ألاّ يعمل يوم الميلاد.

ـ لا أظنه يبدو بحالة جيدة على الإطلاق.

كانت نانسي منكبة على معطف تحوكه لطفلتها، ومن وقت إلى آخر كانت تنظر إلى راكيل نظرات ملؤها التقييم.

ـ أواثقة أنت أنه سيحسن الاعتناء بنفسه؟

ضحكت ليز:

ـ لو كنت مكانك لما ذكرت ذلك لجيم، يا نانسي.... إن العناية بنفسه ليست إحدى مزاياه.

أضاف روبين:

ـ على كل حال، أظنه يبدو على ما يرام. إنه صلب كالمسمار، وهو بالتأكيد لن يشكرك على شفقتك هذه.

وضحك وهو يضع ساقاً على ساق ثم أضاف قائلاً:

ـ المرأة وحدها كفيلة بإزالة آلامه كلّها، ما قولك يا راكيل الصغيرة؟

ـ روبين!

هتفت بذلك كلٌّ من زوجته وأمه في صوت واحد.

أجابت بهدوء:

ـ لا أعلم شيئاً عن هذا يا روبين.

لكن النظرة الماكرة في عينيه أنبأتها بأنه لا يصدقها. لم تكن تنوي الدخول في مناقشة معه، لذا نهضت تساعد ليز في صنع السندويش، خاصة أن ميزي في عطلة هذه الليلة.

أصبح الزوجان الشابان وحدهما. بعد ربع ساعة عادت راكيل وهي تتوقع أن تجدهما على وفاق. لكنها بدلاً من ذلك فوجئت بهما يتناقشان بحرارة. وما إن جلست إلى جانبهما حتى رمقتها نانسي بنظرة عدائية، فأدركت أنها بشكل ما، مسؤولة عن هذا الكدر.

أدخل الدعاء في الكنيسة السلام إلى نفسها، وكذلك غمرها الهدوء والاطمئنان. أثناء ذلك، قامت السيدة أرمسترونغ مدبرة المنزل وزوجها آندي برعاية الطفلة أثناء غيابهم. بعد العودة إلى المنزل أمضى الجميع سهرة الميلاد المعتادة. ولحسن الحظ، أصبحت نانسي أكثر رقة واحتفالاً. قال روبين لراكيل بهمس:

ـ مهما قال جيم، فأنت أروع جمالاً مما كنت، وبما أنه لا يريدك، فما العيب فيّ أنا؟

ـ تمالك نفسك، بحق الله، يا روبين. إن زوجتك تنظر إليك، وأنا لا

أريد أن أسبب النزاع بينكما طوال هذه العطلة.

أجابها روبين وهو يغمض عينيه:

ـ تذكري ما قلته لك فقط.

فابتعدت راكيل عنه باشمئزاز فيما أقبلت نانسي إليه تكلمه.

هرعت راكيل إلى غرفتها وأغلقت بابها، فشعرت بالراحة تغمرها لعلمها أنها ستتخلص من الجميع لسبع ساعات على الأقل. رفضت أن تقلق بشأن الباب هذه الليلة وغابت عن الوعي حالما لامس رأسها الوسادة.

وعلى الرغم من سهرها، فقد استيقظت باكراً صباح الميلاد، قبل الفجر تقريباً. بقيت مستلقية على السرير تستمع إلى صياح الديك من المزرعة القريبة. كان صوته مألوفاً وباعثاً للطمأنينة لكنها سرعان ما شعرت بالتململ، فصممت على الاستحمام.

عندما ارتدت ثيابها سرّحت شعرها، وكان الوقت قد تجاوز الثامنة بقليل. انتقت بنطلوناً خمري اللون، وقميصاً مناسباً، أرفقته بكنزة من المخمل، ثم نظرت إلى صورتها في المرآة باكتئاب، وشعرت بالوحشة في هذا الاحتفال العائلي، ما كان لها أن تقبل الدعوة... ما كان عليها أن تحضر... وغمرتها التعاسة... كان الأجدر بها أن تبقى في لندن وتقبل دعوة صديقة، بدلاً من أن تتكبد مشقة الطريق لتمضي الميلاد مع أناس تكاد لا تعرفهم.

مسحت أنفها بمنديل ورقي. هي لا تلوم جيم على شعورها هذا، صحيح أن وجوده أفقدها اتزانها تماماً، إلاّ أن المتطفل ليس هو بل هي نفسها.

بقدر ما يبدو روبين مزعجاً، إلا أنها تستطيع تدبير أمره بسهولة. لكن جيم هو الذي يزعجها حقاً... جيم الذي يجعلها تحتقره مرة، وتحتقر نفسها مرة أخرى، وإذا كانت تشعر الآن بالوحدة، فلأنها تتخيل حياتهما معاً.

تنهدت وألقت بذقنها على راحتها تحدّق في فضاء الغرفة باكتئاب، لشدّ ما كانت ساذجة حين تعارفا! وإذ تعود الآن بنظراتها إلى الوراء تشعر بالخجل من الفتاة التي كانتها يوماً.

* * *

بدأت العمل في محطة تلفزيون لندن المحلية قبل العيد مباشرة، كواحدة من الفتيات العاملات في قسم السكرتارية. سعدت بعملها الممتع هذا، إذ تستطيع أن تساعد براتبها أباها الذي يعمل كمسؤول عن متحف صغير في منطقة «كينزنيغتون» وهو يتقاضى راتباً منخفضاً نوعاً ما.

بعد ذلك بثلاثة أشهر، قابلت جيم شارد لأول مرة، وجهاً لوجه.

وصلت ذات صباح إلى العمل متأخرة، فأسرعت الخطى حتى أفلحت في دخول المصعد، قبل أن يقفل بابه مباشرة. ثم تفاجأت بأحد أصغر مراسلي الشركة التليفزيونية سناً. عرفته على الفور، إذ كانت تتابع التقارير التي يبثها برنامج الأخبار عن رحلته إلى فييتنام. لكنه بالتأكيد لا يعرفها، فما أكثر السكرتيرات اللاتي ينظرن إليه من بعيد معجبات، وكثيراً ما سمعت راكيل زملاءها يتحدثون عنه بحسد، أما أقرب صديقة لها في قسم السكرتارية، «كيري ريتشاردز» فتراه أكثر الرجال جاذبية.

تذكُرُ راكيل كيف لهثت وهي تركض من موقف الباص، وكيف جاهدت للسيطرة على لهاثها أثناء ضغطها على زر المصعد. تكهنت بأن شعرها مشعث لا مجال، وأن المعطف الصوفي الذي ترتديه فوق بلوزتها وتنورتها الكحلية له مجد غابر، وفكرت في الإثارة التي ستتملك «كيري» عندما تخبرها عمن صادفت في المصعد.

أما جيم، فقد بدا بالهدوء والثقة نفسيهما اللذين يطل بهما على شاشة التليفزيون... توشحت بشرته بأشعة الشمس بسبب الوقت الطويل الذي أمضاه في بلاد الشرق الأقصى. ومع أن سترته الجلدية وبنطلونه ليسا بجديدين، إلا أن هالة من الجاذبية أحاطت به، جاذبية لا تستطيع النساء مقاومتها. ولا يولي هو اهتماماً بصيته هذا، بل على العكس يبدو غير

مكترث كلياً لنظرات الإعجاب التي تلاحقه.

ـ أظنك تعملين هنا؟

ظنت راكيل لبرهة أنه يتحدث إليها. استبعدت ذلك ولكن عندما كرر سؤاله، رفعت بصرها إليه متسائلة:

ـ أنا... لماذا؟ نعم.

ردت عليه وملامحها الهادئة المتزنة تعطي فكرة خاطئة عن نبضات قلبها المتسارعة ثم تابعت قائلة:

ـ إنني أعمل في قسم السكرتارية يا سيد شارد، وقد تأخرت عن العمل.

لم يُفاجأ لاستعمالها اسمه، فطبيعي أن تعرفه ما دامت تعمل هنا، وبدلاً من ذلك، سألها:

ـ منذ متى تعملين في هذه الشركة التلفزيونية؟

ـ منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

أجابت بذلك وهي تعجب لسؤاله هذا، ثم قالت بارتياح:

ـ هذا هو طابقي.

مال برأسه جانباً وهي تخرج، بينما شعرت بساقيها فجأة تضعفان وهي تسير في الممر... هذه أول إشارة إلى أن علاقتها بجيم شارد لن تكون سهلة، وبدلاً من أن تذكر لكيري ما حدث، أبقت ذلك لنفسها.

لم تره بعد ذلك لستة أسابيع تقريباً، سمعت بأنهم أرسلوه إلى إحدى الجمهوريات الصغيرة في أميركا الوسطى، وفيما بعد، نقل إلى جمايكا لتغطية أحد المؤتمرات... وظلت تراقب تقاريره باهتمام، وفي يوم ما أشارت كيري إلى أنه يتعشى مع مراسلة أميركية معيّنة في مطعم كينغستون، فتملك راكيل الذعر لردة فعلها واستغربت لماذا تهتم لأخباره. حتى ذلك الحين راقبت شغف كيري الكبير بأخباره بشيء من التسلية، ولكن أن تقوم هي بالشيء نفسه، بل وبالأسوأ منه، فقد ملأها هذا اشمئزازاً.

ذات يوم، استدعاها أحد المخرجين ليملي عليها نصاً ما، فإذا بها تجد في المكتب جيم جالساً بكسل على أحد المقاعد الجلدية وقد ألقى ساقيه على ذراع الكرسي.

قال وهو يقف لحظة دخولها:

ـ مرحباً.

فنظرت حولها تبحث عن السيد موريسون المخرج الذي أرسل يستدعيها، لقد سبق أن عملت معه عدة مرات في غياب سكرتيرته بعد أن أجريت لها عملية الزائدة الدودية. لكنها لم تجد الآن سوى جيم شارد يواجهها عبر الغرفة.

كان يرتدي بذلة عادية قاتمة اللون غالية الثمن وغاية في الإتقان والأناقة، أما قميصه فأبيض يبرز سمرة بشرته المكتسبة وقد سرح شعره الأسود بعناية. وباختصار بدا وسيماً أنيقاً.

قال وهو يشير إلى كرسي أمام المكتب.

ـ لن يتأخر، تفضلي بالجلوس وتصرفي على راحتك.

تقدمت راكيل ببطء وجلست متصلبة الجسم.

أخذ جيم يدرس تحفظها لعدة دقائق، ولدهشتها، استدار حول المكتب ثم جلس على حافته بجانبها وهو يسألها بسخرية رقيقة:

ـ ما بك؟ لست خائفة من جاك، أليس كذلك؟ إنه شاب لطيف، صدقيني.

فقالت وهي تشيح وجهها عنه وتتمنى لو يبتعد عن المكتب:

ـ أنا لست خائفة من أحد، كما أنني أعرف السيد موريسون، فقد اشتغلت معه عدة مرات، أنا... أنا فقط لم أتوقع رؤيتك هنا، يا سيد شارد.

ضغط جيم على فمه وقد أدرك ما بها:

ـ آه، فهمت، أنا من لا يعجبك، وليس جاك، أنا آسف، ما الذي فعلته فأثار عدم رضاك؟

فتنهدت قائلة:

ـ أظنك تسخر مني يا سيد شارد.

قالت ذلك، وهي تحرص على إخفاء ارتباكها. وابتعد عن المكتب ومضى ينظر إليها بفضول، ثم سألها: ما اسمك؟

نظرت إليه متوجسة، وقد ظنت أنه ينوي تقديم شكوى لوقاحتها.

أجابت بصوت خافت:

ـ وليامز، راكيل وليامز.

ثم نظرت إلى يديها في حجرها، وكأنها تلميذة صغيرة متمردة.

ـ حسناً يا راكيل وليامز، إن جاك موريسون صديق قديم لي، وهذا سبب وجودي هنا، فأنا أنتظره. أهذا جواب لسؤالك؟

ـ أنا... أنا لم...

ـ تسأليني؟ كلا، لكنك فعلت ذلك ضمناً.

حركت راكيل كتفيها بعجز:

ـ أنا... ما كان لي أن أفعل هذا... آسفة.

ـ لا بأس في ذلك.

قال جيم هذا وهو يدور حول المكتب ليتخذ وضعه السابق، ثم نظر إليها، وأخذ يقيّمها وقد ضاقت عيناه.

عندما دخل السيد موريسون، حيا جيم بحرارة ثم خرج الاثنان معاً ليتبادلا بعض الكلمات على انفراد، فتنفست راكيل الصعداء بعد أن تخلصت من نظراته المتفحصة. سرّت لذهابه لكنها تمنت لو كانت أقل تحفظاً، كانت تخشى أن تحدث فيه انطباعاً بأنها فتاة كئيبة ومن دون شخصية، وهذا لا يسمح لأحد بأن يأخذ عنها فكرة جيدة. مرة أخرى لم تشأ أن تخبر كيري عن هذه المواجهة... لسبب ما كرهت التحدث عن جيم شارد مع أحد... وعن شعورها بدناءتها هذه، إلا أنها لم تستطع منع نفسها من ذلك.

كان الجوّ يميل إلى الدفء، واعتادت راكيل في بعض الأحيان أن

تذهب إلى بيتها سيراً على الأقدام، مستمتعة بأشعة الشمس. لا يعود أبوها إلى البيت قبل السابعة والنصف أي بعد إقفال المتحف، ولهذا تجد متسعاً من الوقت للذهاب سيراً على قدميها وإعداد العشاء أيضاً.

ذات مساء، بعد تأخرها في العمل على غير عادتها قررت أن تستقل الباص.. كانت مستندة إلى عمود عند الموقف، تتصفح مجلة، عندما وقفت بجانبها سيارة رياضية خضراء فارهة.

تراجعت إلى الخلف غريزياً إذ اعتادت تجنب من يتحرش بها من الشبان. كانوا يستغلون وقوفها لوحدها فيعرضون توصيلها إلى منزلها، لكنها فتحت فمها دهشة وهي ترى السائق ينحني ليفتح لها باب المقعد بجانبه.

ـ هل يمكنني أن أوصلك؟ أعلم أنها طريقة مبتذلة، ولكنها أفضل الموجود حتى الآن.

حدّقت إليه بعجز: «ولكن... لماذا؟».

هز كتفيه بعفوية.

ـ لأنني رأيتك. لأنني شعرت بالرغبة في ذلك، لأنك فتاة جذابة جداً. ثم لأنك... أثرت اهتمامي.

حبست راكيل أنفاسها:

ـ لكنني لا أستطيع! أعني... إنك لا تسكن بالقرب مني.

فتنهد:

ـ هل هذا رفض؟

ونظر حوله: «ضوء الإشارة أصفر الآن ولا أريد أن أدفع غرامة».

ألقت راكيل بحقيبتها على كتفها ولفّت المجلة. عليها أن ترفض، إنها تدرك هذا، ولو أنه رجل آخر لفعلت ذلك من دون تردد، إلا أن جيم شارد شغل بالها اكثر من أي شاب آخر، كما ان الركوب معه لا يعدّ موعداً غرامياً على كل حال، فهو لا يعرض عليها إلا توصيلها ولا شيء آخر... ولكن، إن كانت تثير اهتمامه كما قال، فماذا سيتبع هذا؟

هتف وقد نفد صبره:
ـ هيا، قرّري.
فألقت بحذرها أدراج الرياح، وصعدت الى جانبه وهي تقول:
ـ شكراً.
ضغط على منظم السرعة وانطلق بالسيارة.
قالت وهو يسألها عن العنوان:
ـ لم أتعود القيام بهذا النوع من الأشياء.
فألقى عليها نظرة جانبية عنيفة:
ـ ولا أنا، سواء صدّقت أم لا.
أدركت أنها أغاظته بترددها الطويل هذا.
سألته بعد فترة وقد لاحظت أن أسابيع مضت منذ رأته في مكتب موريسون:
ـ هل... هل سافرت مرة أخرى؟
بعد لحظات، أومأ جيم برأسه وردّ بجمود:
ـ كنت في إجازة. هل قلت «ساحة لايتمر؟».
أجابت وهي تبتسم له مترددة:
ـ نعم، هذه... شهامة كبيرة منك، لقد... لقد تأخرت في الخروج من المكتب هذا المساء.
ـ أعلم ذلك.
لم يحاول جيم أن يفسّر كلامه هذا، وشعرت هي بالارتباك. كيف علم هذه الأمور عنها؟ هل المصادفة وحدها جمعتهما في هذه الساعة الأخيرة من النهار؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا اختارها؟
وقفت السيارة أمام بيتها بسرعة لم تتصورها. كان منزلاً صغيراً ذا شرفة، يقع في شارع هادىء شمال كنزينغتون، لم يسبق أن رأت بيتها قط بمثل هذا المظهر الرث وهذا الطراز القديم والرديء ولكن يبدو أن شيئاً من هذا لم يدر في خلد جيم.

ـ إنك تعيشين مع أبيك، أليس كذلك؟ وأمك ميتة ولا أخوة لديك ولا أخوات. صح؟ كما أن أباك مسؤول في متحف «هارلينغس».
قال ذلك وهو ينظر إلى النوافذ بستائرها الدانتيل التي تبدو قديمة جداً.
حدقت راكيل فيه غير مصدقة:
ـ ما أدراك بكل هذا؟
ـ إنك تنسين أن مهنتي جمع المعلومات... كما أخبرتك... أن أمرك يهمني.
ـ ولكن لِمَ؟
وعادت تحدّق فيه، فلوى شفتيه: «ولِمَ لا؟»
ـ لكنك لا تعرفني؟
ـ هل يزعجك ذلك؟ سأعترف لك، لقد فتحت ملفّك في الشركة.
هزت رأسها:
ـ ولماذا أنا بالذات؟
ـ ألا يسرّك هذا؟
ـ ليس كثيراً، إنني لا أفهم يا سيد شارد.
التفت إليها وذراعه على مسند مقعدها. كان المساء دافئاً، وقد خلع سترته فأحست بحرارته مع قربه منها.
ـ ربما السبب... أنك خجول.
ـ أتعني ساذجة؟
ـ كلا، لا أعني أنك ساذجة.
احمر وجهها:
ـ إنك تضحك مني مرة أخرى.
أجاب بحدة:
ـ لم أضحك منك قط.
ـ إذن، فأنت تسلّي نفسك.

ـ كلا.

نسحبت نفساً عميقاً.

ـ أظنك تعلم أن نصف موظفات الشركة يسرّهن ذلك.

ـ ولكن ليس أنت.

قالت متلعثمة:

ـ لماذا حملتني إلى سيارتك؟ فأنت بالتأكيد لا تريد موعداً مني.

ضاقت عيناه:

ـ كلا؟ ولِمَ لا؟

فتنهدت:

ـ إنك لا تخرج في مواعيد مع الفتيات، وخاصة مع فتيات من محطة الباص.

بدت السخرية في عينيه:

ـ وما أدراك بذلك؟

أحنت راكيل رأسها، فانزلق شعرها الكثيف إلى الأمام كاشفاً انحناءة رقبتها الناعمة.

ـ عليّ أن أذهب يا سيد شارد، إن أبي سرعان ما يصل إلى البيت، وعليّ أن أعدّ العشاء.

بدا غير مهتم وهو يتفحصها بعينيه العسليتين:

ـ تناولي العشاء معي بعد أن تجهزي عشاء أبيك طبعاً.

رفعت راكيل خصلات شعرها خلف أذنها اليمنى، ثم حدّقت إليه:

ـ لا... لا أظن هذا.

ـ ألا تريدين الخروج معي؟

ألا تريد الخروج معه حقاً؟ وتذكرت راكيل الجهد الذي بذلته كي تخفي لهفتها إلى ذلك.

قال بلهجة خشنة ساخرة:

ـ إذا كنت خائفة من نواياي، فانسي هذا! إن مغازلة العذارى الصغيرات المحتشمات ليس من طبيعتي.

سألته وقد احمرّ وجهها لهذه الإهانة:

ـ لماذا تريدني أن أخرج معك إذن؟.

ردّ:

ـ وحده الله يعلم ذلك. ربما أنا ساديٌّ أهوى تعذيب نفسي! هيا اخرجي، فقد تأخرت عن موعدي.

مدّت يدها تمسك بقبضة الباب وقد ملأتها التعاسة. لقد تعاملت مع هذا الأمر بشكلٍ سيء حقاً.

ترددت وهي تعض شفتها، وعيناها على وجهه الجامد الصلب، ثم قالت مشككة:

ـ هل... هل ما زالت الدعوة قائمة؟

صدرت عنه شتيمة ثم التفت إليها بوجه محبط:

ـ هل تعبثين بي؟

ـ هل ما زالت قائمة؟

ـ تباً لك، لا أدري.

ـ لأنها إذا كانت كذلك، فأنا أقبل.

ونزلت من السيارة إلى الرصيف لاهثة:

ـ متى... متى تعود؟

* * *

نهضت راكيل عن منضدة الزينة، ثم سارت نحو النافذة... تلك كانت البداية، بالطبع كم كانت ساذجة! فصدّقت ما أرادت أن تصدّق، وسدّت أذنيها دون أية نصيحة.

أول نصيحة ارتفعت من أبيها وهو يخبرها بأنها حمقاء إذ تتورط مع رجل مثله، ويؤكد لها أن لا خير من هذه العلاقة، وأن الزواج ليس في نية جيم.. كان على صواب طبعاً، لكنها استمرت تجادله في البداية لأنها رغبت في ذلك النوع من العلاقات، فهي وجيم صديقان حميمان، وهذا

كل شيء.. أخذها إلى العشاء، ثم إلى المسرح، وإلى الحفلات أحياناً عندما يكون في لندن، أما في غيابه فلها الحرية في أن تخرج مع من تشاء.

كانت علاقتهما جيدة في تلك الأشهر الأولى، أما كيري وبقية الفتيات فقد شعرن نحوها لا بالرهبة فحسب بل بالغيرة أيضاً، وأحياناً كانت واحدة منهن تدلي بتعليق خبيث وتروح تنسج الأسئلة الواحد تلو الآخر: أين هو جيم؟ وما عساه يفعل أثناء غيابه؟ ومع من يمضي تلك الليالي التي لا تراه راكيل فيها؟ لكنها، بوجه عام، كانت سعيدة بسير الأمور على هذا النحو، وتدريجياً، همدت احتجاجات أبيها.

ومن الطبيعي ألا تصدق راكيل أحداً، كانت تحب جيم لدرجة يصعب عليها أن تصغي إلى أي انتقاد يوجه ضده. وكم من الأسابيع مرت بطيئة ثقيلة أمضاها جيم غائباً في عمله. أما هي فاقتنعت منذ أول زيارة لأسرته في الشمال أنه سيتزوجها، وشعرت بسعادة عارمة، فلم تبال بذكر اسم امرأة كانت أمه تردده عليه باحتجاج. هي المرة الأولى التي سمعت فيها اسم «بيتسي»، وانقبض قلبها وهي تتذكر ماذا يعني ذلك الإسم لها.

ثم أصيب أبوها بنوبة قلبية وأدخل المستشفى.. ثم أمضى ثلاثة أشهر في مصح. وكان جيم شهماً معها إذ أخذها لتزوره يومياً، وقد سعى للحصول على غرفة خاصة بأبيها فيها تليفزيون ملوّن وكل ما يحتاجه، أما السيد وليامز فاحتجّ قائلاً إنه لا يريد شيئاً من رجل كجيم شارد، لكن راكيل علمت أنه يستمتع سراً بامتيازاته تلك.

وعندما تحسنت حالة أبيها عاد إلى البيت ليجد جيم قد انتدب ممرضة خاصة به، ثم اصطحب راكيل مجدداً إلى منزل أسرته في الشمال، قائلاً إنها بحاجة إلى عطلة مريحة، فاقتنعت بصحة كلامه وقد أنهكها القلق على أبيها.. وبالفعل أمضيا أسبوعين من شهر آب مع أسرته، تحسنت فيهما حالة راكيل فطفح وجهها بالصحة وارتاحت أعصابها، وأخذت سعادتها تشرق يومياً في ظل حبها لجيم. لم ينفصلا قط، بل كانا دوماً في شوق إلى

لقاء جديد.

أخيراً، وما إن انتهت العطلة حتى اضطر جيم للسفر إلى الخارج. كان قد نجح في تجنب كل المهمات خارج البلاد صيفاً، لكن عمله الآن يستدعيه، فرضخت راكيل للواقع وأخذت تشغل نفسها بالعناية بأبيها.

ثم ظهرت «بيتسي» عصر ذات يوم من شهر تشرين الأول لتراها.

قالت إنها زوجة جيم، وإنها زوجته منذ خمسة أعوام، وإنها جاءت إلى راكيل في آخر محاولة لإنقاذ زواجها.

أخذت راكيل ترتجف وقد تملكها الرعب. لم تصدق في البداية، لكنها أخيراً ذاقت الذل والمرارة.. لم يذكر أحد قط أن جيم متزوج... أو كان متزوجاً. لم يأت جيم نفسه على ذكر ذلك بتاتاً. لقد سمعت طبعاً الأقاويل المعتادة التي تدّعي أنه يحتفظ بامرأة في مكان ما، لكنها لم تعد تصدق ذلك. ما كانت لتصدق أبداً أن لديه امرأة أخرى، أو أنه قادر على مثل هذا الخداع والنفاق. لكن هذه المرأة بيتسي تخبرها الآن أنه يملك بيتاً في «باكنغهامشاير»، وأنه ما يزال يتردد إليها عندما يجد الوقت لذلك.

وعادت الشكوك تغمر عقل راكيل كالطوفان، أكان حقاً يقضي كل وقته في الخارج؟ وما أدراها؟ فبإمكانه، وبكل سهولة، أن يعود من سفره قبل عدة أيام، كما فعل حين عاد من اليابان، وتملكها شعور بالغثيان وهي تواجه زوجته.

لكن الأسوأ ما زال ينتظرها، فقد اعترفت «بيتسي» أنها حامل بطفلهما الأول، وأنها كانت تريد طفلاً منذ زمن طويل. وعندما حدث هذا الآن، اكتشفت أنه يحب امرأة أخرى... امرأة أخرى!... أي هي نفسها... وأجفلت راكيل مذعورة، لا عجب أن جيم لم يفاتحها بالزواج قط...

لم تعرف كيف أنهت تلك المقابلة. كانت بيتسي صغيرة الجسم كما

تذكر، شقراء، ورقيقة المظهر نوعاً ما، ذات عينين زرقاوين صافيتين وشفتين رطبتين تبللهما على الدوام. أما الشيء الذي التصق حقاً بذاكرة راكيل فهو خاتم الزواج في إصبع بيتسي.

بعد ذهابها، اتضحت كل المسألة في ذهن راكيل، وخصوصاً اسم «بيتسي» الذي سمعته يُذكر بصوت منخفض في منزل أسرة جيم.

عندما عاد جيم من الشرق الأوسط، رفضت في البداية رؤيته، لكنها فكرت أنها قد تظلمه، فوافقت على أن تتكلم معه.

أدركت حالاً أنه علم بزيارة «بيتسي»، مما وفّر عليها الكلام. إنه متزوج، لا شيء يماثل هذا وضوحاً... رفضت أن تصغي إلى شرحه، حاول أن يخبرها أنهما منفصلان منذ ثلاث سنوات، لم ينكر أن زوجته تعيش في «باكنغهامشاير»، لم ينكر أنه لم يرفع دعوى طلاق قط، إلاّ أنه أنكر كل معرفته بحملها. ومع ذلك، بقي حمل بيتسي حقيقة لا مجال للشك فيها.

وكانت النهاية... عرف الاثنان هذا. استقالت راكيل من وظيفتها في الشركة، وعملت في شركة أخرى منافسة لها. بينما اضطر جيم أن يستمر في التزاماته، حاول أن يهاتفها عدة مرات، وعندما لم ينجح في ذلك، أخذ يكتب لها الرسائل، ولشدّ ما أرادت إعادتها غير مفتوحة، إلاّ أن الفضول دائماً كان يتغلب عليها. ومن خلالها علمت أن بيتسي قد أجهضت، لكنها لم تجبه على رسائله قط، وبقيت في الوقت نفسه على اتصال مع أبويه، وصفحت عنهما لدورهما في هذا الخداع.

من الغريب أن أباها ساءته نهاية تلك العلاقة جداً، بعد كل ما قاله عن جيم في الماضي. كان يدافع عنه عندما تشتمه راكيل لخداعه ويضيف أن الحقيقة لا تُبنى دائماً على الظواهر، وينصحها بأن لا تتسرع، لكن الحقائق كانت واضحة جلية.

أخذت الآن تمرّر على شعرها يدها المرتجفة، وتنظر إلى خارج النافذة بعينين لا تريان. وتساءلت أين «بيتسي» الآن، وماذا تفعل؟ أما

زالت تعيش في بيتها ذاك؟ أما زالت زوجته الشرعية؟ وهل يعيش معها جيم كما اعتاد في الماضي؟

* * *

٥ ـ هدية خطرة

كانت راحتا راكيل مبللتين بالعرق عندما ابتعدت عن النافذة. حاولت الهروب من أفكارها التعسة فلم تجد إلاّ الباب أمامها.. في الخارج بدا الممر هادئاً، فالأسرة ما زالت نائمة كما تكهنت... أغلقت الباب خلفها ثم هبطت السلم إلى الطابق الأسفل.

كان المنزل ما يزال قارس البرودة، إذ أن جهاز التدفئة المركزي لم يعمل بكامل قوته بعد. فهرعت نحو المكتبة، وما إن دخلت حتى شعرت بحرارة المدفأة وقد زودت بالحطب تماماً كما في غرفة الجلوس.

وإذا كانت «ميزي» هنا الآن، فلا بد أنها اشعلتها بنفسها، وفجأة بغتت راكيل بالمنظر الذي واجهها، فعلى الأريكة الجلدية أبصرت جيم مستلقياً نائماً بجانب المدفأة الفارغة، وعلى الأرض بجانبه كتاب مفتوح استنتجت راكيل أنه كان يقرأه حين غلب عليه النوم.

وأخذت تنظر إليه متوترة، وهي تحاول عبثاً تبديد إحساسها بالمسؤولية، هل كانت ساقه تؤلمه؟ ألهذا نزل إلى المكتبة ليحضر كتاباً؟

رأته ما زال مرتدياً ثياب العشاء نفسها، وهي عبارة عن بنطلون مخملي أخضر وصدار فوق قميصه الأبيض أما سترته فلا أثر لها، قد تكون في غرفته. كما لاحظت أن ربطة عنقه غير موجودة، أما شعره فمشعث... بدت لها ملامحه الذكية في نومه، أكثر رقة، وبالإجمال برز فيه عجزٌ غريب... لكن راكيل تغلبت على مشاعرها، فلا يمكن أن تنظر إليه الآن بحياد، ليس بعد كل ما جرى بينهما.

وبينما هو مضطجع باسترخاء استرجعت راكيل ذكريات خلت. لا يمكنها أبداً أن تحب رجل آخر كما أحبته، حتى بعد أن عرفت أيّ مراوغ هو وتأكدت أنه نذير شر فهي لا تستطيع أن تمنع الألم الذي يحترق في داخلها.

ـ ميلاداً سعيداً.

فتح عينيه على غفلة منها، فابتعدت مجفلة وهي تضم الكتاب الذي بين يديها إلى صدرها، ثم أجابت متلعثمة:

ـ مـ... ميلاداً سعيداً... أنا... لماذا... إنك مستيقظ باكراً.

فجلس مكشراً. وأنزل ساقيه المتصلبتين إلى الأرض ثم تمتم بعد أن اجتاحته رجفة لا إرادية:

ـ يا إلهي... البرد قارس، هل جاءت «ميزي»؟ أنا متلهف إلى فنجان شاي.

نظرت راكيل خلفها، ثم قالت على الرغم منها:

ـ سأذهب لأراها إذا شئت، كان عليك أن تتغطى ببطانية، من الجنون النوم من دون غطاء في هذا الوقت من السنة، قد تموت برداً.

نظر إليها من تحت جفنيه:

ـ وما شأنك أنت إذا أنا أردت أن أطلق العنان لعيوبي؟ هذا البيت بيتي...!

احمر وجه راكيل، ثم قالت بتوتر:

ـ لا شأن لي بذلك، طبعاً.

وألقت الكتاب على رف بجانبها وهي تقول:

ـ سأذهب لصنع كوب من الشاي.. أظنني أسمع..

ـ كلا، انتظري.

وأطلق شتيمة مختنقة وهو يجاهد للوقوف، ثم جرّ نفسه نحوها بصعوبة:

ـ لم أعنِ ما قلته الآن، تعلمين أنك هنا على الرحب والسعة مثلي

تماماً وفي أيّ وقت.

فقالت بتوتر، وهي تظهر الحزم أمامه:

ـ شكراً، ليس عليك أن تفسر لي موقفك فأنا أقدّر الترحيب الذي استقبلني به والداك، وأنا شاكرة لهما هذا، ولكنك على صواب فهذا بيتك... أنا لا أملك حقاً في الانتقاد..

تمتم يقول بخشونة:

ـ راكيل، أنا متعب، وهذا كل شيء، وأظنني لا أختار دوماً الكلمات المناسبة...

سارت راكيل نحو الباب بحركة آلية.. إنها لا تثق به في حالته هذه، وكذلك لا تثق بنفسها. حاولت أن تقول شيئاً وهي تخرج للبحث عن «ميزي»، ثم عبست وهي تنظر إليه من فوق كتفها، يلقي بنفسه فوق الأريكة محنيّ الكتفين...

بعد أن تناولت العائلة الفطور، بدأوا تبادل الهدايا، وبما أن راكيل لم تعرف مسبقاً بحضور جيم فهي لم تستطع أن تمنحه سوى هدية بسيطة ابتاعتها من متجر القرية في اليوم السابق. كانت عبارة عن علبة تحتوي على أدوات للحلاقة ومحلول يستخدم بعد الحلاقة، لكنها أهدت روبرت وشاحاً وعطوراً فرنسية لليز، وشكوكولاتة لروبين ونانسي، ومنحت الطفلة دمية... لكنها أصيبت بالدهشة وبلغ بها التأثر أقصاه للهدية التي قدمتها إليها أسرة شارد. كانت عبارة عن حلية للصدر «بروش» بيضاوية الشكل رائعة الجمال مصنوعة من حجر كريم. وعندما احتضنت راكيل كلا منهما بتأثر، أسرّت إليها ليز بالقول:

ـ إنها من مجوهرات الأسرة منذ أجيال، فهي تعود في الأصل إلى جدة جدتي وتوارثتها البنت عن أمها طوال مئة عام تقريباً، وبما أنني لم أنجب ابنة أمنحها إياها، قدّرت أنها ستعجبك.

سعدت راكيل بهذا العطف الغامر، لكنها ألقت نظرة شك على نانسي، وعلى الفور بادرت ليز إلى طمأنتها:

ـ لقد أعطينا نانسي عقد اللؤلؤ الذي كان لجدتي، لكنني أردت أن أعطيك «البروش». كنت واثقة من أنه سيعجبك.

ـ آه، يعجبني جداً.

رأت راكيل عيني جيم ترمقانها، لكنها لم تستطع احتمال نظرته هذه. في الواقع، لم تكن قد رأته منذ شجارهما الصباحي في المكتبة، وقد طلبت من ميزي أن تأخذ له الشاي، وإذا كانت مدبرة المنزل استغربت قيام الضيفة بهذه المهمة، فهذا لم يظهر عليها.

لم تستطع راكيل تجنب تركيزه عليها، إلا أنها شعرت بالارتياح عندما سمعت ليز تهتف إعجاباً بالهدية التي قدمها جيم إليها، ثم مررت ساعة المعصم الذهبية الأنيقة على الحاضرين جميعاً.

أما روبين ونانسي فقدما إلى راكيل بعض مناديل اليد، فشكرتهما بحرارة قبل أن تتناول آخر هدية إلى جانب صحنها، عرفت مصدرها من خط اليد على البطاقة المرفقة بها.

شعرت بالتوجس وهي تفكّر بمحتواها، لقد أهدى أباه وأخاه أزرار قمصان، قدم إلى نانسي سواراً فضياً... أما ماذا اشترى لها فهذا ما لم تستطع أن تتصوره، خاصة وأنه لم يعرف بوجودها إلاّ قبل خمسة أيام.

كان خاتماً... أزاحت الورق عن العلبة الكبيرة، وهي تظن أن الهدية تحفة أو ما شابه، أو ربما تذكار أحضره معه من رحلته المشؤومة إلى «ماسوتا». لكنها كانت مخطئة، فعندما رفعت الغطاء الكرتوني وأزاحت الورق الناعم الذي يلف الهدية، اكتشفت في قاع العلبة قطعة ملفوفة بالمخمل الأزرق.

كان الخاتم مصنوعاً من الذهب يزينه فص من الياقوت تحيط به مجموعة كبيرة من الماسات الصغيرة. كان واضحاً أنه غالي الثمن. وعندما أخذ أفراد الأسرة يتبادلون النظرات، أدركت أن الهدية فاجأتهم بقدر ما فاجأتها، فشعرت بمزيج من الارتباك والعجز.

ـ هل أعجبتك الهدية؟

كان هذا السؤال من جيم، فنظرت إليه بالرغم عنها وهي تكافح لتلتقط أنفاسها، ثم تمتمت:

ـ أنا... إنها جميلة. ولكن... لكنني لا أستطيع قبولها.

ثم أضافت بسرعة:

ـ لم أظن قط... أعني لم أتوقع شيئاً كهذا قط، و... صدقني، لا أدري ما أقول.

أجابها بصوت منخفض وهو يسكب لنفسه مزيداً من القهوة:

ـ جربيه في إصبعك، أشعريني على الأقل بالرضا لرؤيته مناسباً لإصبعك.

نظرت راكيل إلى والدته مترددة، لكن ليز أومأت:

ـ نعم، جربيه يا راكيل.

قالت هذا بلهفة، متجاهلة ما بدا على وجه نانسي من استنكار، واستجابت راكيل لذلك وهي تهز كتفيها بعجز.

كان ضيقاً قليلاً، فأصابع يدها اليمنى أغلظ من اليسرى. ولكنها رفضت التسليم بالمعنى الواضح لهذا، وأبت أن تدسه في إصبع يدها اليسرى. لم تعرف لماذا أحضر لها جيم مثل هذه الهدية الثمينة، وعلى قدر إعجابها بها، إلا أنها لم تستطع قبولها.

أخذت ليز تميل بيد راكيل نحوها هاتفة:

ـ آه، يا عزيزتي، ما أجمله! أليس رائعاً يا روبرت؟ جيم، لا أظنك اشتريت هذا من إنكلترا!

ومن دون تفكير نطق جيم باسم أكثر متاجر نيويورك شهرة في المجوهرات.

ـ إنه من متجر «تيفاني» في الواقع.

هتفت نانسي بحسد:

ـ تيفاني؟ لماذا لا تشتري لي شيئاً كهذا يا روبين؟

نزعت راكيل الخاتم من إصبعها، بينما راح روبين يشكو مازحاً من

رواتب الصحافيين العالية، ثم عادت تلفه بالمخمل الأزرق، وهي تتمتم بصعوبة:

ـ هذا... هذا لطف بالغ منك يا جيم، ولكنني، حقاً، لا أستطيع قبوله.

ـ لماذا؟

وتسمرت عيناه عليها، فيما أدركت أنه تعمد منحها الهدية أمام الآخرين. فقالت بضيق:

ـ لأنه... حسناً، لأنه غالي الثمن، ما كان.. ما كان لك أن تنفق نقودك عليّ.

ـ أنا لم أفعل هذا.

أجاب بذلك بعدم اهتمام، فجالت راكيل بنظراتها في وجوه أفراد أسرته، ثم قالت:

ـ ماذا... ماذا تعني؟ لا بد أنك فعلت هذا، إلا إذا...

اصطنعت ابتسامة متوترة: إلا إذا سرقته.

نظر إليها جيم وهو يرشف فنجانه، فلم تستطع قراءة أساريره، وأخيراً قال وهو يضع الفنجان على المائدة:

ـ إنه مثل «البروش».

وعندما رفعت حاجبيها مستفهمة، أضاف:

ـ إنه ليس جديداً، لقد اشتريته منذ زمن، وقد نسيت الآن لماذا اشتريته.

ـ حتى ولو كان هذا..

ودفعت العلبة نحوه، لكنه عاد فدفعها إليها وهو يقول:

ـ احتفظي به، فهو لا ينفعني بشيء، إنه ملائم لك. البسيه مع تمنياتي الطيبة.

كان وجه راكيل يلتهب، فسمحت للعلبة أن تقبع إلى جانب صحنها لأنها عرفت أن أي جدال أمام أسرته سيكون عقيماً.

لكن عينيها استمرتا تتحديان غطرسته، إلى أن هزمهما لمعان السخرية في عينيه.

بعد أن أخليت المائدة من الأطباق وأطعمت الطفلة ليزا، اقترحت ليز أن يذهب الشبان في نزهة سيراً على الأقدام، ثم نظرت إلى ابنها الجالس إلى المائدة وخاطبته قائلة:

ـ لن تستطيع الذهاب طبعاً يا جيم، لكن إذهب أنت يا روبرت، بينما أساعد أنا ميزي.

وافق روبرت. وهكذا انطلق الثلاثة، ترافقهم الطفلة في عربتها.. ساروا هذه المرة في الممر المنحدر نحو الرأس البحري، وانتهى بهم المسير إلى خليج رملي. استعادت راكيل هذه الطريق التي خلفت فيها ذكريات حميمة، إذ طالما سارت فيها مع جيم. وجاهدت لكي تميت هذه الأفكار في مهدها، خصوصاً وأن حادثة الخاتم ما زالت تشغل ذهنها.

اهتم روبرت بجرّ عربة الطفلة، وأخذ يلقي على روبين بعض الأسئلة المتعلقة بأعمال الفولاذ. وعندها وجدت راكيل نفسها تسير خلفهما مع نانسي، وبما أن عرض الطريق لا يتسع سوى لاثنين معاً، وجدت الفتاتان نفسيهما تسيران سوياً من دون أن تملكا الخيار في ذلك.

كان صباحاً قارس البرودة، لكن السماء بدت صافية وأشعة الشمس لطيفة، كانوا يسيرون والشمس تبعث الدفء في ظهورهم، وحاولت راكيل أن تتودد إلى نانسي، فسألتها:

ـ إن ليزا كبيرة الحجم بالنسبة إلى عمرها، أليس كذلك؟

بالرغم من أن راكيل لم تكن تعرف الكثير عن الأطفال، إلا أنها تأثرت بحيوية ليزا، فتابعت تقول:

ـ أتظنينها تشبه أباها؟

هزت نانسي كتفيها وهي تدس يديها في جيبي فرائها القاتم. كان لونه متعارضاً مع شعرها الأشقر، وتكهنت راكيل أنها أمام امرأة تبالغ في العناية بمظهرها.

أخيراً، ردت نانسي تقول:

ـ لا أعرف شكل روبين وهو طفل، لم نتزوج إلا منذ خمسة عشر شهراً، حتى إنني لم أكن أريد طفلاً!

قالت راكيل وهي تحاول إظهار العطف:

ـ أحقاً؟ لعلك تعنين أنك لا تريدين طفلاً بهذه السرعة كما أظن.

فقالت نانسي بنبرة هادئة:

ـ كلا، فأنا لست من النوع الذي يحب الأمومة، لكن الرجال أنانيون متوحشون، وقبل أن أتأكد من الأمر، كانت هي في الطريق.

أخذت راكيل تستوعب قولها وقد أطرقت في التفكير، ثم قالت:

ـ فهمت، حسناً، لا بأس، أنا واثقة من أنك ستحتاطين أكثر في المرة القادمة.

فأجابتها نانسي وهي تحني كتفيها:

ـ نعم، لكن الأمر منهك للغاية... على الرجال أن يبدوا بدورهم مزيداً من الحرص، أليس كذلك؟

سيطرت راكيل بصعوبة على تلوّن وجهها ثم قالت:

ـ أظن ذلك يعتمد على طبيعة الرجل بذاته.

وشعرت بالارتياح عندما التفت إليهما روبرت يطلب منهما الالتحاق به وبروبين.

عندما عادوا إلى البيت كان الغداء جاهزاً، وهو عبارة عن بوفيه من الأطعمة الباردة أقيم في الغرفة الصباحية، أما عشاء العيد فيقام ذلك المساء بعد وصول ضيوف آل شارد الآخرين، وقالت ليز لراكيل بأن المجموع سيكون أربعة عشر ضيفاً.

سألت راكيل وهي تساعدها في إعداد المائدة في غرفة الطعام:

ـ إنك لم تتعرفي بعد إلى مدير روبرت، أليس كذلك؟ أظنك ستعجبين ببرنارد هيلتون وزوجته، إنهما لطيفان جداً، لا بد أن ابنتهما «أنجيلا» في سنك.

- هل ستأتي معهما؟

فأومأت ليز:

- نعم، ولديهما ابن أيضاً لكنه لن يرافقهما، فقد تزوج منذ عدة أشهر، وهو يمضي الميلاد مع زوجته وأهلها.

فقالت راكيل:

- حسناً، لقد أصبحوا تسعة، إلى من سأتعرف أيضاً؟

توقفت ليز عن العمل:

- إنك تعرفين السيد كونواي طبعاً، سيكون وزوجته معنا، وكذلك آل مانينغ وابنهما باتريك، والدكتور مانينغ هو الطبيب المحلي.

أمالت راكيل رأسها إلى جانبها:

- في أي ساعة يحتمل وصولهم؟

- حسناً، آل مانينغ والسيد كونواي لن يكونوا هنا إلا بعد السابعة، لكنني أظن برنارد وأليس يصلان وقت الشاي.

فقالت راكيل تحاول تذكر الأسماء:

- هل هما السيد والسيدة هيلتون؟

- نعم، وابنتهما أنجيلا.

وابتسمت ليز وهي تربت على ذراع الفتاة بعطف ثم اتجهت إلى الباب:

- لقد ساعدتني جداً يا عزيزتي، وأنا شاكرة لك، فنانسي تهتم بالطفلة ولا وقت لديها للمساعدة، لكنني أعلم أن بإمكاني الاعتماد عليك.

بادلتها راكيل الإبتسام:

- هذا أقل ما يتوجب عليّ. فلولاك لأمضيت العيد وحدي.

ترددت ليز، ثم قالت:

- بالنسبة إليك... وإلى جيم، هل الوضع سيء كما كنت تتوقعين؟

أحنت راكيل رأسها:

- إننا مهذبان مع بعضنا البعض.

- لقد لاحظت ذلك، لكنني لاحظت أيضاً أنك تركت هديته على المائدة هذا الصباح، لقد وضعتها في غرفتك قبل الغداء.

- آه يا ليز!

فقالت ليز بسرعة، متوسلة:

- دعيها هناك، حالياً على الأقل. أنا لا أحب أن أترك شيئاً ثميناً كهذا الخاتم ملقى، كما أعرف أن جيم لن يستعيده.

تنهدت راكيل.. بدت لها والدة جيم قلقة ملهوفة، فلم تستطع أن تخيّب أملها:

- لا بأس.

قالت ذلك من دون شعور بالمرارة، فشدّت ليز على كتفيها قبل أن تهرع مبتعدة.

اكتمل تجهيز المائدة، ونظرت راكيل بإعجاب إلى الورود والمناشف المطرزة. أما الشموع ففي حاملاتها الفضية تنتظر من يشعلها. وعلى المائدة مدّ غطاء دمشقي أبيض وأدوات فضية وكؤوس بلورية تعكس الأضواء، تأملتها راكيل بمزيد من الإعجاب.

تناهت إليها أصوات الرجال من غرفة المكتبة، فاجتازت الردهة متقدمة نحو السلم. كانت نانسي قد حملت الطفلة إلى الطابق الأعلى بعد الغداء لكي ترقدها، ولكنها لم تعد بعد، وتكهنت راكيل بأنها تعدّ نفسها لحفلة العشاء، وقد تطوعت مدبرة المنزل وزوجها بالجلوس إلى جانب الطفلة، وسيأخذانها بعد ذلك إلى شقتهما الملحقة بالمنزل، ولا شك أن نانسي أرادت ذلك رغبة في الحرية الكاملة.

وفي غرفتها، وجدت راكيل هدية جيم موضوعة على منضدة الزينة، فتذكرت أنه ما زال مصدر خطر بالنسبة لها.

لم يكن الخاتم ملفوفاً، فبدا لمعانه باهتاً في ضوء بعد الظهر الشتائي الخافت ومع ذلك ما من شيء يحجب جماله، وبدافع مفاجيء، وضعته راكيل في إصبعها وكأنها مخطوبة. ناسب إصبعها تماماً فبسطت يدها

تملّي ناظريها منه بإعجاب بالغ، كيف حصل على خاتم كهذا؟ لماذا يحتفظ بخاتم كهذا؟ إلا إذا. . . وعندما خطرت لها الفكرة نزعت الخاتم فجأة. . . إلا إذا كان خاتم بيتسي وقد أعادته إليه.

تغيرت مشاعرها تماماً، فعادت تلف الخاتم وتدسه في علبته. . انغرست هذه الفكرة في رأسها، فلم تعد تستطيع التخلص منها، حتى منظر العلبة التي تحتويه، آلمها. . لا تريد أن تتذكر من أين جاء. . . وبعد لحظة تردد، نهضت واقفة وحملت العلبة.

كان الممرّ خارج غرفتها خالياً. وبعد أن اطمأنت إلى عدم وجود أحد، سارت بسرعة إلى غرفة جيم، ستضع العلبة في غرفته. لن يعرف أبداً من أعادها إليه وإذا اشتبه في أمه قد لا يعيده إلى راكيل أبداً.

فتحت الباب من دون تردد ودخلت، وفي لحظة تقدمت نحو سريره ووضعت العلبة على المنضدة بجانبه، لكنها لم تهرب من الغرفة مباشرة. إحساس ما، أرغمها على التمهل لبرهة فانتهزت الفرصة وأجالت نظرها في الغرفة.

كان سرير جيم كسريرها، بأربعة أعمدة، يعلوه فراش عصري ويغطيه غطاء مطرز ذهبي اللون. لكن السرير، كما الغرفة، كانا أكبر حجماً. أخذت راكيل تتنقل في الغرفة، وتمرّر يدها على الصندوق الكبير ذي الأدراج الخشبية. إلى جانبه لاحظت الخزانة المزدوجة، وبعض الفراشي على منضدة الزينة، ثم وقفت عند النافذة تحدّق في البحر المظلم.

أثناء استغراقها في التأمل، لم تلاحظ راكيل خيط النور تحت باب الحمام. وعندما انفتح فجأة، غمر الضوء السجادة. . . استدارت وهي تشهق وقد وضعت يدها على فمها، وإذا بها ترى جيم واقفاً هناك، ينظر إليها.

* * *

٦ ـ ترقص على جرحها

تفاجأت راكيل بهذا الوضع. . . بدا أنه يقوم بتغيير ضماد ساقه، فتسارعت خفقات قلبها وهي ترى أن الجرح في فخذه لم يلتئم بعد. بدا جرحه منفراً وقد صبغ الاحمرار الجلد حوله.

سألها وهو يدخل الغرفة بصعوبة ظاهرة، ويجر خلفه ساقه المصابة:

ـ ماذا تريدين؟

وفجأة، رأت صندوق الضماد مفتوحاً على حافة سريره، بينما تابع قائلاً:

ـ لا أصدق أن هذه زيارة اجتماعية، ولهذا أظنك تملكين سبباً لوجودك هنا.

تنفست راكيل بعمق وهو يجلس بمحاذاة السرير ثم يلتقط مقصاً، وأخذت تراقبه بالرغم عنها وهو يقص القماش الناعم، بينما بدا غير مكترث لوجودها كلياً، أما هي فكانت كتلة من الأعصاب المتوترة، غارقة في بحر هائج من العذاب وتحاول عبثاً إخفاء عطفها.

ألصق جيم الضماد، كانت كل حركة يقدم عليها تولّد المزيد من الدماء في ساقه. من الواضح أنها لا تتقدّم نحو الشفاء بالسرعة المفترضة وأنه قد أهمل العناية بها، فتملكت راكيل اللهفة للتقدم وفحص الجرح، والاطمئنان إلى أنه غير متقيّح.

مدّ يده إلى الضماد عندما انتبه إلى نظراتها، فالتفت إليها وقد عيل

صبره، وبدا الألم واضحاً في عينيه.

ـ ماذا تريدين يا راكيل؟ لا أريد متفرجين أثناء قيامي بهذا العمل، فهل تتفضلين بالإفصاح عما تريدينه ثم تخرجين؟

عضت راكيل على شفتها:

ـ الجرح سيء.

لكنها لم تجب عن سؤاله، فتوترت شفتاه وقال بفتور:

ـ نعم، إنه سيء، جروح الرصاص غير معروفة بمظهرها الجميل. ولا تخبريني أن أمي أرسلتك لكي تضمديه لي، يمكنني أن أتدبر الأمر في غيابها وهذا يكفي.

قطبت راكيل جبينها:

ـ هل تضمده لك أمك في العادة؟

ـ إنها تلف الرباط حوله، فموقع الجرح لا يسهل علي تضميده بنفسي. ولكن لا داعي لقلقك، يمكنني القيام بذلك، وهكذا لست بحاجة لمساعدتك.

ترددت راكيل لحظة، ثم تقدمت منه ببطء، وفجأة ركعت بجانبه ثم أمسكت بطرف الرباط وهي تقول:

ـ سأقوم بذلك.

أراد أن يتجاهلها ولكنها نظرت إليه:

ـ دعني أفعل ذلك بما أنني هنا.

ترك جيم الرباط من يده فجأة، لكن أساريره أظهرت أنه غاضب متوتر، ثم صرخ بعنف:

ـ ما الذي تظنه أمي بي بحق الجحيم؟ لست معاقاً.

ركزت راكيل اهتمامها على ما تفعله من غير أن تحفل بغضبه، وبدلاً من ذلك رفعت الضماد الذي وضعه وأخذت تفحص الجرح بنفسها، وعن قرب تمكنت من رؤية الغرز التي تجمع اللحم إلى بعضه البعض. وعندما اطمأنت إلى نظافته وعدم تقيّحه، أعادت وضع الضماد.

تململ جيم على سريره بفروغ صبر:

ـ ما الذي تفعلينه، بحق الله؟ أعيدي الرباط... سأكلم أمي في أسرع وقت عن رأيي فيها.

أخذت راكيل تلف الرباط حول فخذه بضغط معتدل ثم اعترفت له مكرهة:

ـ الواقع أن أمك لم ترسلني إلى هنا، لقد جئت.. جئت لأعيد إليك الخاتم.

ألقى عليها نظرة تنذر بالشؤم:

ـ لماذا تضمدين جرحي إذن؟

ـ على أحدهم أن يقوم بذلك ولا أظنك تمانع... لقد انتهى التضميد، أليس كذلك؟ هل تشعر بأنه يضغط على الجرح أو ما شابه؟

ظل جيم ينظر إليها طويلاً مما أقلقها، ثم ألقى بنفسه على السرير باستسلام وهو يطمئنها بجمود:

ـ كلا، كلا. إنه جيد، لا يمكن لممرضة كفوءة أن تضمده بشكل أفضل.

نهضت من أمامه ثم نظرت إليه:

ـ هذا حسن، الأفضل أن أذهب، ثم... ثم عليّ أن أتهيأ للحفلة.

قال جيم عابساً:

ـ الحفلة... آه، نعم، الحفلة، أتظنينهم يلاحظون إذا أنا لم أحضرها؟

فتطلعت إليه بقلق:

ـ لا أظنك جاداً، إنك تعلم أن هذا يكدّر أمك.

فطمأنها بضعف وهو يرفع نفسه مستنداً إلى مرفقه:

ـ كلا، أنا غير جاد.

نظرت إليه بشك، ثم سألته وهي ترى شحوبه:

ـ إنك بخير، أليس كذلك؟ أعني ألا تشعر بمرض أو صداع؟

ـ كلا.

قالها بفتور، فتنهدت ثم هتفت:

ـ ولكن كيف حدث هذا؟ ألا يفترض بهم حماية المراسلين؟ إنك غير مسلّح فلماذا أطلقوا عليك النار؟

فكر جيم للحظة، ثم هز كتفيه:

ـ لم يقصدونا نحن بالضبط، ألم تخبرك أمي؟ لقد وجدنا النيران تمطرنا من الجانبين، حيث تراشقت القوات الحكومية وقوات الثوار بالرصاص، وأظننا كنا محظوظين لوقوعنا بين أيدي القوات الحكومية، فأنا لا أعتقد أن الثوار يأسرون الجرحى.

تملك راكيل الرعب:

ـ أتعني أنهم كانوا سيقتلونك؟

ـ حسناً، ربما فكروا باتخاذنا كرهائن في البداية في محاولة لاستعادة بعض مساجينهم.

ـ فإن فشلوا، هل كانوا سيقتلونكم؟

فقال وقد بدا في صوته السأم:

ـ كل ذلك مجرد تخمينات، فالأحداث لم تتوال بهذا الشكل. وعلى كل حال، ما يهمك لو أصبت برصاصة قاتلة؟

وعاد يستلقي على ظهره.

فهتفت بعنف: «كلا».

استدار إلى جانبه ينظر إليها ويقول رافعاً حاجبه:

ـ كلا؟ ولِمَ لا؟ إننا لا نلتقي على الإطلاق، فما أهمية ذلك لديك إذن؟

انقبضت يدا راكيل:

ـ لا أتمنى لك الموت.

ـ أحقاً؟

فنظرت إليه ثائرة:

ـ كان عليك أن تبالغ في الانتباه إلى نفسك. إن... إن أمك تقلق

عليك... وأنت تعلم هذا.

تأوه جيم قائلاً: «سأتذكر ذلك دوماً».

ـ أتمنى لو تفعل.

ـ سأفعل.

بان التوتر على جيم، بينما تحولت راكيل إلى الباب وهي تشير إلى الخاتم على المنضدة بجانب السرير، قائلة:

ـ الخاتم... هناك... و... سأراك على مائدة العشاء.

رفع جيم نفسه على يديه هاتفاً:

ـ انتظري، خذي الخاتم معك. أريدك أن تحتفظي به.

ـ كلا.

مدّ يده إلى العلبة ثم ناولها إياها.

ـ بل خذيه، إنه لك.

وضعت راكيل يديها وراء ظهرها:

ـ لا... لا أستطيع أخذ هدية كهذه منك.

ـ ألأنه غالي الثمن؟ أم لأنك لا تصدقين أنني اشتريته لك؟

ارتجفت شفتا راكيل:

ـ إنك لم تشتره لي، هذا ما قلته أنت، كما... كما إنني لن ألبس شيئاً اشتريته لبيتسي.

أجاب بحدة وهو ينهض:

ـ لم أشتره لبيتسي، ثم لماذا لا تريدين أن تلبسيه؟ ألا تظنينه خير مكافأة على جهودك.

ـ قولك هذا كريه.

رد عليها ببرودة:

ـ وأنا أشعر بنفسي كريهاً.

وألقى بالعلبة على الفراش بلا اكتراث فتبعثرت محتوياتها على الغطاء بينما تابع قائلاً:

ـ انسيه! سأتخلص منه بطريقة أو بأخرى.

اعترضت بضيق:

ـ لا... لا يحق لك انتقادي.

فاستدار يوليها ظهره:

ـ أحقاً؟ هلاّ ذهبتِ من هنا؟ لقد تعبت من هذا الحديث.

فتحت راكيل الباب وهي تلاحظ، كارهة، أنه قد ربح هذه المواجهة. كيف يشعرها بالحقارة بينما هو المسؤول عن هذا الوضع الصعب؟ صفقت الباب خلفها تظهر غضبها، ثم نظرت حولها بخوف وقد أدركت الشبهة التي ستلفها لو أنها جذبت الانتباه إليها.

في غرفتها، تنهدت بقنوط، ثم رمت بنفسها على السرير... يظن جيم أنه يستطيع أن يقول ما يحلو له وهو لا يعاملها باحترام وكأنها... وتوقف ذهنها عند استنتاج لا مناص منه، حسناً، لن تسمح له بأن يفعلها مرة أخرى، ستبتعد عن طريقه في المستقبل، ولن يعتريها أي عطف نحوه يوماً ما.

شعرت بعد ذلك بشيء من التحسن. بعد أن استحمت وجففت شعرها، أخذت تنتظر الحفلة بحماس، فبإمكانها على الأقل، أن تنسى في صحبة الآخرين، الفراغ الذي يحمله، ولعلها نالت من مواجهتها مع جيم ما لم تنله من الزمن... ألا وهو التخلص من بقية الأسف الذي استمر بعد انفصالهما.

وضعت المكياج على وجهها برقة وهي تبرز الانحراف الخفيف في زاويتي عينيها، ثم جمّرت شفتيها بلون قرميدي، وبعد أن مشطت خصلات شعرها الجعدة على كتفيها، تناولت الثوب الذي سترتديه.

كان حريرياً ذا لون أحمر معتم، يصل كماه إلى المرفقين. كانت بساطة خطوطه تجذب الانتباه إلى استدارة الصدر، ولما انتهت بدت بالغة الأناقة، ولأول مرة شعرت بالسرور لأنها أخفت عذابها وراء جمالها.

أثناء ذلك سمعت هدير سيارة وتكهنت بأن آل هيلتون قد وصلوا. في

الوقت نفسه تذكرت أن ابنتهما في مثل سنها، ورأت أن تنزل كي تتيح الفرصة لليز للصعود إلى غرفتها وارتداء ملابسها، هذا إذا لم تفعل ذلك بعد، فناتسي لن تقوم بهذا طبعاً.

وكما توقعت، كان روبرت وليز يستقبلان الضيوف في غرفة الجلوس، أما ميزي فتجهز الشاي. وعندما أطلت راكيل نهض روبرت وبرنارد هيلتون احتراماً لها بينما رفعت ليز بصرها شاكرة، وهي تهتف:

ـ آه، ها أنت ذي يا عزيزتي، تعالي اجلسي معنا، أريدك أن تتعرفي إلى أنجيلا.

كان برنارد هيلتون يشبه روبرت قليلاً، طويلاً ضخم البنية ولكن بشارب قصير أحمر، أما زوجته أليس فطويلة القامة أيضاً، لكنها نحيلة بشكل مخيف، ويبدو جلياً أنها ترهب زوجها العدواني.

لم تكن أنجيلا هيلتون تشبه أياً منهما، فهي معتدلة الطول والبنية، ذات شعر أحمر كثيف يحيط بوجهها الناصع البياض كهالة من نار. بدت جميلة، ولكن جمالها من النوع العصبي الهش، وأدركت راكيل، حتى قبل أن تفتح أنجيلا فمها، أنهما لن تصبحا صديقتين أبداً. وبعد أن قامت ليز بواجب التعريف قالت:

ـ إن أنجيلا عارضة أزياء، لقد طافت في أنحاء العالم كلها أثناء عملها، أليس كذلك يا أنجيلا؟

ـ حسناً، تقريباً.

تحدثت أنجيلا كفتاة صغيرة مما جعل راكيل تشعر نحوها بالكراهية على الفور، لكنها ما لبثت أن عنفت نفسها لذلك، فأنجيلا لا تعني لها شيئاً على كل حال، وليس لها الحق في الحكم على الفتاة بهذه الخشونة، ولكن شيئاً فيها بعث في راكيل توتراً عصبياً.

كما توقعت، اعتذرت ليز من الحاضرين ثم خرجت لتغير ثيابها، وبما أن الرجلين استغرقا في الحديث عن شؤون العمل، حاولت راكيل أن تقوم بدور المضيفة، فسألت بأدب:

ـ أتعيشون قريباً من هنا يا سيدة هيلتون؟

منحتها أليس هيلتون ابتسامة صغيرة. كانت ما تزال متحفظة بالرغم من ابتعادها عن زوجها، لكنها أجابتها بأنهم يعيشون خارج نيوكاسل مباشرة، ثم قالت:

ـ لكننا دوماً نأتي لزيارة روبرت وليز يوم احتفالات الميلاد وعادة يأتون إلينا في احتفالاتِ رأس السنة.

ـ ما أجمل هذا!.

سألتها أنجيلا، وهي تشبك يديها حول ركبتها:

ـ هل أمضيت احتفالات الميلاد في منزل «كليرهايتس» قبل الآن يا آنسة وليامز؟

أجابتها راكيل بالنفي:

ـ لكن أبي توفي هذا العام، وعرف روبرت وليز أنني سأقضيه وحدي.

ـ آه، في لندن؟ وهل من انسان وحيد في لندن؟

فردت راكيل بنعومة، متجاهلة الانتقاد الساخر:

ـ ذلك ممكن، هل تمضين احتفالات الميلاد مع أسرتك على الدوام يا آنسة هيلتون؟

توترت شفتا أنجيلا:

ـ ليس دوماً، لكنني عندما سمعت أن جيم هنا، تلهفت لرؤيته.

تغلبت راكيل على هذه الصدمة غير المتوقعة فأظهرت اهتماماً زائفاً على وجهها ثم سألت:

ـ هل تعرفين جيم جيداً؟

فأجابت أنجيلا هازئة:

ـ طبعاً. إنني أعرفه منذ كنت في السادسة من عمري! لقد اعتاد أن يغيظني بشكل بغيض.

قالت والدتها أليس وهي تنظر إليها بعطف:

ـ لقد اعتادت أنجيلا أن تتبعه دوماً كظله. ولطالما اختلفت مع روبين بسبب جيم.

ضغطت راكيل على شفتيها معاً، فعلى الرغم من أنها لم تأبه للأمر ظاهرياً إلا أنها لا تستسيغ أبداً صورة انجيلا وجيم سوياً، ولأول مرة تشعر بارتياح بالغ وهي تتذكر أن بيتسي هي زوجة جيم لا هذه الفتاة.

سألت أنجيلا:

ـ أين الشابان؟

فانقبض قلب راكيل للهجتها المتناغمة الأليفة، وتساءلت هل أخبرت ليز آل هيلتون عن تورطها مع جيم، أو هل تعرف أنجيلا شيئاً عن حبها له.

أجاب روبرت أنجيلا بعد أن سمع سؤالها:

ـ سينزل روبين ونانسي بعد لحظات.

ثم التفت إلى أمها.

ـ أظنك في منتهى الشوق لرؤية حفيدتي أليس كذلك، يا أليس؟ لطالما راهنت أننا سنصبح جدين.

بدا الارتباك والخجل على أليس، فبادر زوجها إلى التفسير:

ـ حسناً، صحيح أن أنجيلا خُطبت مرتين يا روبرت، لكنني أظنها ما زالت تبحث عن الرجل المناسب. أما بالنسبة إلى كولين، فهو متزوج، كما تعرفون، ولكن يبدو أن زوجته تريد أن تتابع مزاولة مهنتها، ولا أظنهما سينشئان أسرة في المستقبل القريب.

وعندما ساد الصمت، سألته راكيل:

ـ ما هي مهنة كتتك؟

فمنحها برنارد ابتسامة عريضة:

ـ إنها طبيبة في مستوصف في «نيوكاسل»، إنها فتاة ماهرة وقد دهشنا جميعاً حين قبلت الزواج من «كولين».

هتفت أنجيلا بخشونة:

ـ كولين ليس معتوهاً يا أبي.

فضحك أبوها:

ـ كلا، إنه ليس معتوهاً، ولكن لا يمكن مقارنة عمله مع الخيول بمزاولة الطب، أليس كذلك؟

ردت عليه ابنته بحدة:

ـ كلا، إن امتلاك الخيول اكثر ربحاً.

هز أبوها رأسه. بينما قالت زوجته:

ـ أظن على باربرا أن تعاود التفكير، فمن واجب المرأة أن تكون مع زوجها، أن تضع رغباته في المقام الأول، ولهذا تفشل الكثير من الزيجات هذه الأيام.

فقالت راكيل بحزم:

ـ بل رأيي أن تواصل المرأة عملها إذا كان ذا قيمة. لأن الزوجة سرعان ما يتملكها السأم، ولهذا تبوء الكثير من الزيجات بالفشل. من الأفضل أن يشترك المرء مع زوجته في عملها.

ـ هذا رأي حكيم.

أتاهم هذا الصوت الكسول من عند الباب، فاحمر وجه راكيل... لكن صيحة أنجيلا المبتهجة أنقذتها من أعين الحاضرين.

ـ جيم، آه يا جيم، ها أنت ذا.

وتركت مقعدها مندفعة:

ـ يا حبيبي، كيف حالك؟ إنك وحش. كيف تخيفنا جميعاً بدخولك المفاجيء؟

واندفع سيل العبارات بينما حاول الاحتفاظ بتوازنه بالاستناد إلى إطار الباب.

حوّلت راكيل عينيها عن منظر أنجيلا المتوسل، واغتنمت الفرصة لتقترب أكثر فقد كانت أنجيلا مسترسلة في الاستمتاع بهذه الفرصة.

وأخيراً قال:

ـ لم أكن أعرف أنك مهتمة بي.

ثم أومأ إلى أبيها وأمها يحييهما بأدب:

ـ كيف حالك يا برنارد؟ وأنت يا أليس، تبدين في صحة جيدة.

ـ إنها صحتك التي نقلق بشأنها...

هتفت أنجيلا بذلك بصوتها الطفولي الأحمق مما زاد من كراهية راكيل.

قال روبرت بجفاء:

ـ آه، لا تقلقوا لأجله، إنه كالقط بتسعة أرواح.

فعلقت أنجيلا بخجل:

ـ حسناً، إنه يشبه القط فعلاً، أليس كذلك يا حبيبي؟ إلا أنه لا يشبه القط البيتي المدجّن، بل فهداً ناعم الملمس كبير الحجم.

وابتعد جيم عن انجيلا ثم هبط جالساً على كرسي بذراعين وهو يعتذر ساخراً:

ـ إنني جريح حرب.

لكن انجيلا جثمت على ذراع الكرسي بجانبه ثم استهلت معه حديثاً بصوت منخفض.

نظرت راكيل إليهما بفروغ صبر، وقد لاحظت على كره منها كم يبدو جيم جذاباً ببنطلونه الأسود وسترته المخملية القرمزية اللون، وشعره الممشط بعناية، وربطة عنقه البديعة المعقودة بإتقان.

بدا لها مختلفاً جداً عن آخر مرة رأته فيها في سريره، وظلت تلك الذكرى تراودها وكأنها تسخر من انفصالها الحازم عنه.

عندما استدار رآها تنظر إليهما، فخفضت بصرها بسرعة. رباه! أتراها تضيف الغيرة إلى قائمة المشاعر التي أثارها فيها؟ وإذا صحّ ذلك، فماذا تفعل في هذا الشأن؟

في هذا الوقت، انضم روبين وزوجته إلى الجمع فيما أراد كل شخص أن يرى الطفلة.

وجدت نانسي موقعها المناسب إذ بدت نموذجاً للأنوثة المكتملة بثوبها المشمشي المصنوع من «الجيرزي»، وبصدره الفضفاض، أما

روبرت وليز فعرضا حفيدتهما على الضيوف بابتهاج واضح، ثم جلس روبين على الأريكة بجانب راكيل:

ـ أرى أن أنجيلا لم تضيّع وقتها، أتعلمين أنها بقيت تلاحقه لسنوات؟ وعلى الرغم من زواجه وفسخها لخطوبتين، لا يبدو أن علاقتهما تقدمت.

ـ لا أظن كلامك صحيحاً.

قالت ذلك بعدم اهتمام وما لبثت أن تمنت لو لم تقل شيئاً لكن روبين قطب حاجبيه مستفهماً، فقالت:

ـ آه، حسناً، عنيت فقط أن معرفتها به...

فأكمل كلامها بجفاء:

ـ وطيدة؟ لا تصدقي ذلك، إن جيم لا يتورّط مع فتاة معقدة مثلها، خصوصاً بعد بيتسي على كل حال...

وقال جملته الأخيرة مكشراً.

بدا الارتباك على وجه راكيل:

ـ ماذا تعني؟

فهز روبين رأسه:

ـ لا شيء.. إنسي ما قلته لك... ثوبك هذا جميل جداً.

لاحظت أنه غيّر الموضوع لكنها أغفلت عن محاولته هذه، وإذا بالجرس يدق مرة أخرى معلناً وصول القسيس، وهكذا لم تملك راكيل وقتاً للتفكير في كلام روبين، ثم وصل آل مانينغ ومعهم ابنهم باتريك، وكان هذا موسيقياً هاوياً، وقد أحضر معه قيثارته، وعندها لف روبرت السجادة إيذاناً منه أن السهرة ستكون حافلة بالرقص.

جلست راكيل إلى مائدة العشاء بين باتريك مانينغ والقسيس، أما جيم فجلس إلى نهاية المائدة تقريباً فيما أنجيلا بينه وبين أبيه. أقعدت ليز روبين في الطرف الآخر من الطاولة بينما نانسي على بعد كرسيين منه فقط. وافترضت أن ليز أجلست أنجيلا إلى جانب جيم لتيسير الأمر عليها هي، ولكن بلا جدوى، بل بات الأمر أصعب، وازداد صعوبة عندما تقابلت

عيناها بعيني جيم، فلم تر فيهما أثراً لعاطفة.

كان العشاء تقليدياً، بدأ بديك حبشي يتوسط المائدة بضخامته، وانتهى بقالب حلوى يتصاعد منه اللهب، وفطائر اللحم الساخنة، ولم تدهش راكيل حين نهضت عن المائدة فشعرت بالغرفة تدور بها.

تبرعت بمساعدة ليز وميزي على رفع الأطباق، مسرورة بهذا التمرين الذي يساعد على صفاء ذهنها. وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، كان باتريك يعزف على قيثارته الأناشيد، وفيما رافقه الجميع في الغناء انعزلت هي بنفسها في إحدى الزوايا، ثم أطفئت الأنوار فأظلمت الغرفة إلا من لهيب النار في المدفأة، فبدا مشهد احتفالات الميلاد الحقيقي.

جلست نانسي إلى جانبها وحدها بعد أن أخذت مدبرة المنزل الطفلة منها، ثم همست لها:

ـ ما رأيك في أنجيلا؟ يقول روبين إنها عارضة أزياء، لكنني لا أرى فيها مؤهلات هذه المهنة.

قلبت راكيل شفتيها:

ـ هل تعرفينها من قبل؟

فأجابتها مكشرة:

ـ آه، نعم، وكنت أظنها معجبة بروبين إلى أن رأيتها مع جيم.

شعرت راكيل بانقباض في قلبها، فسألتها:

ـ وهل جيم معجب بها هو أيضاً؟

وما لبثت أن عنفت نفسها لأنها تلقي مثل هذه الأسئلة، لكن يبدو أن نانسي لم تنزعج بل أجابتها:

ـ لا أدري، ولكن هذا لا يعدّ أمراً مهماً، أليس كذلك؟ أعني... إذا أعجبت فتاة برجل، سيكون أحمق إذا لم ينتهز الفرصة... ألا ترين هذا؟

شهقت راكيل: «إنك تظنين»...

ـ حسناً، ألا تظنين ذلك أنت أيضاً؟ ليس الأمر بالنسبة إلى الرجل كما هو بالنسبة إلى المرأة... هذه هي حقيقة الحياة.

لم تقل راكيل شيئاً، ربما كانت نانسي على حق، وتملكتها المرارة... بعد الذي قاله جيم آخر مرة رأته فيها، لم تعد تجرؤ على النقاش، لكن هذا لم يخفف من ذلك الألم الفظيع في داخلها أو يريحها من ذلك التوتر الذي كان يتملكها.

عندما أضيئت الأنوار وتوقف باتريك عن العزف وضع روبرت في المسجل شريط موسيقى راقصة، وافتتح الحلبة بالرقص مع السيدة مانينغ. وتشجع آل كونواي للانضمام إليهما، كما تقدم برنارد هيلتون بشهامة لمراقصة ليز.

ـ أتريدين أن ترقصي؟

رفعت راكيل نظرها بدهشة ففوجئت بباتريك أمامها، وقد بدا عليه الخجل لاضطراره إلى دعوتها أمام نانسي.

قالت وهي تمدّ له يدها:

ـ آه، نعم! كما تشاء.

وجرها هو من يدها إلى الحلبة.

لم يكن يرتدي سترة عشاء كالآخرين، ولكن وسامته عوّضت عن بنطلون الجينز والكنزة اللذين يرتديهما، كان أصغر منها، كما تكهنت راكيل، لا يكاد يبلغ الواحدة أو الثانية والعشرين، وواضح أنه لم يتعود هذا النوع من الاجتماعات.

عندما وصلا إلى الحلبة، قال معترفاً:

ـ أنا لست ماهراً حقاً، هذا النوع من الرقص الهادىء لا يستهويني، لكنني أريد تجربة حظي معك.

أجابته بضحكة ناعمة:

ـ أنا مسرورة جداً لدعوتك هذه فأنا أيضاً لا أحسن الرقص، نحن متناسبان.

ـ هذا حسن.

ابتسم باتريك، وأخذا يرقصان على إيقاع الموسيقى الهادئة، كانت

رقصة بطيئة أو هكذا أعلن روبرت، ولكن الرقصات جميعها بدت كذلك بالنسبة إلى باتريك، وعندما تغير الإيقاع إلى الفالس، لم يكادا يغيران خطواتهما.

ولم تنبعث الحيوية في باتريك إلا بعد أن تدخل روبين لدى أبيه ووضع موسيقى عصرية في المسجل.

قال وهو يعود فيجذبها:

ـ ترقصين جيداً، أتعلمين هذا؟ هذا رائع.

ـ كان لدي معلّم جيد.

أجابت راكيل بذلك لاهثة، وهي تدور على كعبيها، ثم انتبهت إلى أن عرضهما صار محط انتباه الجميع، بما في ذلك جيم وأنجيلا. كانا قد أقبلا من غرفة الجلوس ووقفا عند الباب يتأملانهما، وتساءلت راكيل ورأسها يدور، إن سمع جيم قولها، فجيم هو من علمها كل شيء عن الرقص، وعليها الآن أن تركز انتباهها على باتريك فيما عينا جيم مثبتتان عليها.

وعندما توقفت الموسيقى، عادت تلهث واستمر رأسها بالدوران. كان رقصاً بهيجاً منعشاً، لكنها أخذت تتساءل الآن إن كان من الحكمة أن تعاود الرقص مع هذا الدوار الفظيع.

قال لها باتريك بحزم:

ـ أعرف زاوية صغيرة جيدة حيث يمكننا أن نتحدث فتخبرينني عن قصة حياتك، وإذا بقي وقت أخبرك عن قصة حياتي أنا أيضاً.

شعرت بالحرارة وعدم الارتياح، فدفعته عنها، ولكن عبثاً. ثم حاولت أن تتخلص منه قائلة:

ـ لا أظن هذه فكرة جيدة في الحقيقة. دعني أذهب يا باتريك. أنا لست بصحة جيدة.

فمال برأسه نحو رأسها بشكل غير لائق.

ـ آه، هيا! لا تجزعي على شرفك... كل ما أريده هو أن نمضي بعض الوقت معاً، إننا الشابان الوحيدان هنا، وأظننا، لهذا، ملتزمين ببعضنا

البعض.

ـ باتريك...

ـ أظنه دوري الآن.

قال جيم ذلك وهو يقاطعهما بحزم عابس، ثم خلّص راكيل منه من دون جهد يذكر، وواجه نظرة باتريك العدائية ببسمة عينيه القاسيتين.

ولم يكن أمام الفتى إلا أن يقبل الوضع. أما راكيل فقد ذهلت للارتياح الذي شعرت به لدى رؤيتها جيم... لقد ترك أنجيلا وحدها، وجاء يسند نفسه من دون عصا، وإذ تذكرت الجرح الفظيع في فخذه، شعرت على الرغم منها، بمزيج من الصدمة والقلق، وعندما ذهب باتريك مخذولاً، استدارت لتشكره.

ـ فلنرقص.

قال لها جيم ذلك عابساً. نظرت إليه من دون أن تفهم، ثم قالت وهي تنظر إلى ساقه:

ـ ولكنك... لن تستطيع.

إلا أن جيم تجاهلها وهما يرقصان على إيقاع الأنغام.

وبعد أن ابتعد عنها لعدة سنتمترات قال:

ـ أتريدين أن تتسببي بشجار؟

ـ لا أفهم...

ـ إذا ظن باتريك أنني أتصرف كطاغية لا بنية الرقص، فقد يدفعه هذا إلى تصرف حاقد، وهكذا علينا أن نرقص ولو لعدة دقائق.

تنهدت راكيل وهي ترفع بصرها إليه:

ـ ولكن ألا تعترض صديقتك إذا رأتك تتركها لأجلي؟

فقال مكشراً:

ـ من؟ أنجيلا؟ لعلها تظن أن ما من شيء تقلق لأجله.

نظرت إليه باستياء:

ـ أظنك قلت لها ذلك بنفسك، ما دمت تبعدني مسافة ذراع. على كل

حال، ماذا جرى؟ هل أنا ملوّثة أو ما شابه؟ أم أنك خائف من تأثيري فيك؟

بدت البرودة في عيني جيم، ثم قال بفتور:

ـ لقد لاحظت منذ بداية السهرة أنك تبحثين عن المتاعب.

فقالت غاضبة:

ـ وكيف عرفت؟ لقد كنت مشغولاً بأنجيلا، متلهفاً إليها، كان ذلك ملفتاً!

قال ساخراً:

ـ أحقاً؟ حسناً، أقترح أن تهتمي بأمورك الخاصة في المستقبل.

ـ نعم، سأفعل هذا.

ـ وأنا مسرور بسماعي هذا.

وسكت فجأة ثم نظر حوله.

ـ حسناً، يبدو أن عاشقك المتشرد قد اختفى. أظن هذا يكفي، أليس كذلك؟

ـ إذا شئت.

كانت راكيل ساخطة مجروحة، وما إن ابتعد عنها حتى سارعت إلى التمسك به.. كانت الغرفة تدور بها ببطء، وكان رأسها يؤلمها وكأن مطرقة ما تطرق عليه بقوة.

* * *

٧ ـ صديقان . . أبداً

ـ ما بك؟

التفت جيم إليها بفروغ صبر، ولكن ضيقه سرعان ما تلاشى عندما تفرّس في وجهها البالغ الشحوب، فصدرت عنه شتيمة مختنقة وهرع يقف أمامها.

ـ أنا متعبة . . . رأسي يؤلمني كثيراً.

أقترب منها وأحاطها بذراعه ثم قال عابساً:

ـ سأرافقك الى الغرفة لتستريحي . . وإن سألوني عنك فسأقول لهم إن رأسك يؤلمك.

لاحظت راكيل ليز تسرع إليهما وهما يسيران نحو السلم. لكن جيم أشار إليها بأن تبقى بعيدة، وعندما وصلا إلى الأعلى شعرت بالهواء البارد يلفح جبينها، ثم رأت الممر المضاء يلوح أمامها.

دفع جيم باب غرفتها ليفتحه، ثم تركها فتوجهت الى السرير واستلقت عليه.

تركها لفترة قصيرة عاد بعدها وهو يحمل قرصين من الأسبرين ناولها إياهما مع كوب من الماء:

ـ هيا . . خذيهما وسرعان ما يخف الألم.

شكرته باسمة وتناولت القرصين وكوب الماء. بعد قليل قالت له:

ـ ماذا عن ساقك! لا بد أنك تتألم! حتى إن عصاك ليست معك.

رد عليها بجفاء:

ـ هل أساعدك؟

ـ لا عليك . . لست معاقة . . كل الأمر أنني متعبة ورأسي يؤلمني.

ـ حسناً! سأتركك الآن، أنا . . حسناً، إذا أردت شيئاً، اصرخي فقط ولا بد أن يسمعك أحد.

ـ لا بأس.

أرادت أن تحتجزه عندها، لكنها ما لبثت أن أدركت أن هذا جنون، فاستندت إلى مرفقها، باسمة:

ـ أنا . . . أنا شاكرة لك على كل حال، أرجو أن تودّع آل هيلتون عني.

فقال وهو يفتح باب الغرفة:

ـ سترينهم في الصباح، ألم تخبرك أمي أنهم عادة يمضون الليل هنا؟

توترت شفتا راكيل، إذن ستكون فرصة مناسبة لأنجيلا:

ـ آه، لا بأس إذن. سأراك في الصباح

ثم تكورت في فراشها بينما سار إلى الباب.

ما إن ذهب حتى تلاشى تعبها كله . . استغربت الأمر بداية لكنها قدّرت إن هذا الخبر المفاجيء قد أثارها.

شعرت بمذاق سيء في فمها، فغادرت فراشها واتجهت إلى الحمام، وهناك غسلت وجهها ويديها وأسنانها ونزعت ثيابها.

ثم ارتدت قميص نومها الأخضر، وبعد أن سرحت شعرها، عادت إلى سريرها وأطفأت النور.

عندما استلقت على فراشها، سمعت أصوات الحفلة تخفت، تلا ذلك هدير محركات السيارات وتحيات الضيوف الخارجين. آل كونواي أولاً، ثم آل مانينغ، وأخيراً تناهى إليها وقع أقدام على السلم ثم روبين ونانسي يوجهان إلى والديه تحية المساء، بعد ذلك ارتفعت تمتمة غريبة عندما أحضرت ليز آل هيلتون إلى غرفهم، ختاماً تمتمة جيم وهو يتبادل كلمات مع أمه. ثم ساد الصمت.

تحركت راكيل قليلاً متململة، وهي تتساءل هل ألقى جيم على أنجيلا تحية المساء.

وارتجفت شفتاها لصورة أنجيلا وجيم معاً. صحيح أنها لا تريده، إلا أنها تكره رؤيته يقيم علاقة مع امرأة أخرى...

عندما انفتح بابها بخفة، ظنت لأول وهلة أن ليز جاءت لتطمئن عليها، ولكن القادم إلى الغرفة لم يكن والدة جيم بل جيم نفسه، فحبست راكيل أنفاسها كلياً.

عندما رأى أنها ما زالت مستيقظة، نفد الصبر منه، وارتسم ذلك عليه بوضوح، لكنه بعد أن نظر خلفه، دخل إلى الغرفة وأغلق الباب وراءه، ثم قال:

ـ رأيت النور ما زال مضاء، فظننتك نسيته ونمت. فأردت إطفاءه لأجلك.

ـ ما ألطفك!

كانت الأفكار السوداء ما زالت تنتابها، فصعب عليها أن تشعر نحوه بالمودة، عندئذ نظر إليها بإمعان:

ـ ما الذي حدث؟

ـ لا شيء، وماذا يمكن أن يحدث؟

ـ لماذا النور غير مطفأ إذن؟

ـ لأنني... لأنني تحسنت... الاسبرين سرى مفعوله.

قال مقطباً جبينه:

ـ ولكن هل أنت بخير؟

ـ نعم.

ـ هذا حسن.

ثم عاد إلى الباب متكئاً على العصا التي أحضرها معه هذه المرة.

وعلى الرغم منها سألته:

ـ هل تؤلمك ساقك؟

أجاب بجفاء:

ـ يمكنني أن أتصرف.

فتملكها الغضب وأردفت بمزيج من التهور والمرارة:

ـ طبعاً يمكنك ذلك.

فرفع حاجبيه الأسودين:

ـ ماذا تعنين؟

لم يكن أمام راكيل سوى الاستمرار:

ـ لا تدعني أؤخرك.

سألها بحيرة:

ـ تؤخرينني؟ تؤخرينني عن ماذا؟

قالت باستياء:

ـ لا تتظاهر بالجهل.

ـ ما الذي تتحدثين عنه بحق الجحيم؟

سألها هذا وهو يتراجع عن الباب. وعندما اقترب منها ورأى عينيها الغاضبتين، أدرك ما تعنيه، فقال بغيظ:

ـ يا إلهي! أما زلت تتهمينني بأنجيلا؟ ماذا تظنينني؟ نوعاً من الحيوانات؟

ـ ألست كذلك؟

التهبت عينا جيم، وتذمر باشمئزاز:

ـ لا أدري لماذا أهتم بك.

ـ لماذا تهتم بي؟

ونهضت مستندة إلى مرفقها.

عندئذ قال لاوياً فمه:

ـ نعم، هيا، نامي، فقد تأخر الوقت وأنا متعب جداً ولا أستطيع سماع جدلك هذا.

وعندما سار نحو الباب، تملكها شعور من الندم كادت تصدقه بالرغم

يمكنك... هل يمكنك إطفاءه لأجلي، ثم تجلس بجانب سريري إلى أن أنام فقط؟

تونر جيم:

ـ ما هي اللعبة التي تقومين بها؟

قالت بعينين متسعتين:

ـ ليس هناك من لعبة، أرجوك...

كان جيم على وشك الرفض، ولكن الألم في ساقه دفعه إلى صراع داخلي، فألقى بنفسه على كرسي مريح بجانبها وأطفأ النور من دون ضجة، قائلاً:

ـ والآن، نامي، وإلا خرجت.

تراخت راكيل على الوسادة بحذر، وهي مسرورة ببقائه.

ـ تصبح على خير.

قالت ذلك برقة، مصممة على أن لا يبقى بقربها أكثر من نصف ساعة، ثم أغمضت عينيها بسلام وهي تشعر برضا مدهش.

* * *

استيقظت عند الفجر ينتابها إحساس كئيب... كان رأسها يؤلمها قليلاً، ولكن شيئاً آخر ظل يزعجها، شيء عليها أن تتذكره. وعندما فتحت عينيها رأت جسماً نائماً على الكرسي، ثم أخذت تطرف بعينيها غير مصدقة وهي ترى جيم راقداً هناك، وعادت إليها على الفور أحداث الليلة الماضية.

اقتربت من الكرسي وأخذت تلقي نظرة عن كثب على ساقه المضمدة، ولكنها سرعان ما جمدت في مكانها حين فتح عينيه فجأة.

تمتم يقول وقد بدا التشوّش في عينيه البنيتين:

ـ راكيل؟

وما لبث أن تذكر كل شيء، فقال بخشونة:

ـ ما الذي تفعلينه؟

منها. كادت تثق به عندما أنكر أيّ علاقة بأنجيلا، ولكن المشكلة هي أنها لا تثق لا بأنجيلا، ولا بردة فعل جيم هذه.

ـ جيم!

همست باسمه. فتوقف تلقائياً عن السير ثم التفت إليها بارتياب ويده على مقبض الباب.

ـ ماذا؟

ـ آسفة، أنا آسفة، صدقني، أرجوك... لا تذهب.

ـ لا أذهب؟

وارتسم على وجهه تعبير غريب كان مزيجاً من الغضب وعدم التصديق والإحباط.

فتضرعت إليه بنظراتها، وهي تقول:

ـ لا أدري لماذا أشعر بالخوف، ألا يمكنك البقاء فترة قليلة إلى أن أنام فقط؟

أغلق جيم الباب بهدوء، ثم استدار يواجهها بشفتين متوترتين وهو يقول بعنف:

ـ لا بد أنك مجنونة، ماذا تظنّينني؟

فردت بكآبة:

ـ ظننتك صديقي.

نطقت بذلك وهي تقلد صوت أنجيلا الطفولي البريء، فقبض يده مهدداً، ثم قال بغضب عنيف:

ـ لا يمكننا أن نكون صديقين أبداً، يا راكيل.

وإذ أدرك أن صوته قد يسمع من خارج، اقترب من السرير وهو يستند إلى عصاه:

ـ دعي النور مضاء، فذلك يساعدك على النوم.

هتفت من دون أن تعلم تماماً لماذا تتصرف على هذا النحو:

ـ لكنني لن أنام، أعني... لا أستطيع النوم والنور مضاء. هل

أثارت عدوانيته أعصابها فهتفت متلعثمة:

ـ أنا... أنا... أنا أسألك السؤال نفسه، ما... ما الذي تفعله هنا؟

ـ استولى عليك النوم وأنت ممسكة بيدي، وأظنني غفوت أنا أيضاً.

شهقت ذاهلة، وتملكها الغضب:

ـ لا... لا يحق لك هذا.

ـ ربما لا، ولكن قبل أن تبدئي بلومي، تذكري أنك طلبت مني البقاء.

ـ ولكنني لم أطلب منك النوم في غرفتي.

وضع ذراعيه تحت رأسه:

ـ ولِمَ لا؟ بما أنك أبعدتني عن فراش أنجيلا، أعتبر هذا أقل تعويض منك.

ـ إنك حقير.

لكنه لم يكترث لها بل استمر على سخريته فيما فارت غضباً واندفعت تقول:

ـ لا بد أنني كنت مجنونة عندما طلبت منك المساعدة!

وابتعدت عنه.

قال والغضب يقفز في عينيه: «عليك أن تستفزيني في الصباح يا حلوتي، خصوصاً وأنت ضعيفة هكذا. تعلمين أنني لا آخذ إلا ما يقدّم لي».

ـ أنا لم أقدم لك شيئاً.

رقت نظراته التي كانت تجول ولهى على وجهها:

ـ راكيل، أريدك، أريد أن أكون جزءاً منك...

توقف قليلاً ثم أضاف:

ـ يا إلهي، يا راكيل، كيف عشت بعيداً عنك طوال هذه المدة؟ إنك المرأة الوحيدة التي ترسل في كياني مثل هذه المشاعر.

توترت شفتا راكيل:

ـ أرجوك، لا تقل هذا!.

ـ ولِمَ لا؟ ماذا تقولين يا راكيل؟ هل تحقدين عليّ؟

أجابته، وقد عيل صبرها:

ـ إنك لا تفهمني، لا أريد منك الكلام المعسول.

ـ أنت مجنونة إذ تظنين أنك تستطيعين فسخ علاقتنا، أو تتظاهرين بانتهائها.

ـ تباً لك!

بدا ثقيل الأجفان يتملكه التعب، إذ مرت ليلتين متتاليتين لم يذق فيهما طعم النوم ورسم الإرهاق دوائر قاتمة حول عينيه.

ـ إنك لي يا راكيل، لقد دمغتك باسمي منذ سنوات، أنا متأكد من شعورك نحوي لذا لن يتمكن أحد من الوقوف بيننا، حتى أنت نفسك.

ـ هذا ما تظنه، قد أضعف أمامك، لكنك لن تملك عقلي أبداً، ولا شيء... لا شيء تفعله يمكنه أن يغير من شعوري نحوك.

زفر جيم زفرة عنيفة لكنه سرعان ما أجابها بضعف:

ـ أواه يا راكيل، لا تفعلي هذا بي!

تمتمت بصوت منخفض كالفحيح:

ـ أنا... أنا لا أفعل بك شيئاً، لا أدري كيف تجلس هناك مدعياً أن اللوم يقع عليّ... بعد... بعد الطريقة التي كذبت بها عليّ!

نظر إليها بجمود:

ـ أنا لم أكذب عليك، لم أقل لك إنني متزوج لأنك لم تسأليني.

شهقت قائلة:

ـ ولماذا أسألك؟ إنك لم تتصرف كرجل متزوج.

أجاب بحدة:

ـ لأنني لم أشعر كرجل متزوج يوماً. لقد انفصلنا، أنا وبيتسي، بعد ثمانية عشر شهراً من زواجنا... كان زواجنا مهزلة.

وضعت راكيل إصبعيها في أذنيها:

ـ لا أريد أن أسمع.

هز كتفيه:

ـ لا بأس، هكذا أنت، إذا وضعت في رأسك فكرة لا يمكن لأحد أن يزحزحها.

حانت منها إشارة استهزاء:

ـ وماذا بمكنك أن تقول؟ كنت متزوجاً... وكنت... كنت تحبها.

قال متأوهاً وهو ينزل من السرير:

ـ كلا! هذا ليس صحيحاً يا راكيل. لم اكن أحبها. وكيف يمكنني ذلك وأنا كنت أمضي معك كل دقيقة من وقتي؟

أشاحت راكيل بوجهها عنه. في داخلها ضجّ صوت مخادع يحثها على نسيان حزنها، على الأقل إلى أن تترك هذا المنزل، لكنها تعلم أن الرغبة هي كل ما تفكر فيه. وهي تدرك أيضاً أن الضعف سيجتاحها وتستسلم لعواطفها. عليها إذاً أن تقاومه بشكل ما، وعندما تعود إلى لندن وتبتعد عن تأثيره، سينسيها الزمن ما لم يستطع المنطق محوه.

ـ عليك أن تذهب. لقد... سبق أن أخبرتك أننا قلنا كل ما يمكن أن يقال.

سألها عابساً:

ـ وهل ما زلت تظنينني المسؤول عن حمل بيتسي؟ راكيل، أقسم لك بكل ما هو مقدس أنني لست والد الجنين!

التفتت إليه غير مصدقة:

ـ وكيف تقول ذلك؟ جيم، عندما عدت من اليونان عرفت أنها جاءت لتراني!

ـ نعم.

فهزت رأسها: كيف علمت بهذا؟

ـ لقد اتصلت بي ما إن عدت إلى شقتي، لا بد أنك أخبرتها أنني عائد...

ـ كلا!

فقال بنفاد صبر: حسناً، ربما الاستديو إذن، لقد عرفت ذلك بطريقة ما، ولكن ليس مني أنا، وطبعاً أول ما أخبرتني به هو الجنين.

حبست راكيل أنفاسها: أوتجرؤ على قول هذا؟

ـ لِمَ لا؟ إنها الحقيقة.

ـ ولكن، إذا لم تكن أنت الأب، فلماذا تخبرك؟ ألا يجدر بها أن تخبر والد الطفل نفسه؟

فتنهد جيم:

ـ عليك أن تفهمي طبيعة بيتسي راكيل، إنها ليست كبقية النساء...

بلغ التوتر براكيل حداً عظيماً فقالت وهي لا تهتم بأذيته:

ـ هذا ما يبدو، لو كنت مكانها، لانتظرتك بالبندقية! إما هذا وإما بفاتورة الإجهاض ملفوفة بأوراق الطلاق.

ـ إنك عنيدة صلبة الرأي، أليس كذلك؟ حتى إنك لا تريدين الاستماع إلى تفسيري.

فرفعت إليه رأسها:

ـ هل كنت متزوجاً منها أم لا؟

ـ نعم، نعم، تباً لك. نعم.

هتف بذلك فجأة ثم قال:

ـ نعم، أنا هُزمت، وأنت الرابحة.

ثم سار نحو الباب:

ـ لا يمكنني أن أضرب رأسي في الجدار أكثر من ذلك. بعد فترة من الزمن، تنسين لماذا بدأت بالمشكلة، وعندما يحدث هذا، ستعرفين أن الأمر لم يكن يستحق العناء.

* * *

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN1

٨ ـ رحل معه الأمل

بعد ذهابه، بدأت راكيل بالارتجاف فهرعت إلى فراشها رغبة منها في السيطرة على نفسها. كانت على وشك الانهيار، وسرعان ما تملكتها ردة فعل مدمّرة، وسيطر على أطرافها وهن شديد.

احتقرت نفسها حتى كادت تبكي، وتكورت في فراشها ثم جذبت كومة الأغطية فوقها... ما زال الوقت مبكراً للنهوض من الفراش، ومبكراً لمواجهة النهار.. وشعرت فجأة بالنعاس، فدفنت وجهها في الوسادة وهي تجذب غطاء السرير إلى ما فوق أذنيها، وسرعان ما استغرقت في النوم.

* * *

استيقظت على أشعة الشمس تتسرب من بين الستائر، وأحست بميزي تقف بجانب سريرها تحمل صينية الإفطار.

نظرت إليها راكيل وهي تطرف بعينيها، فبادرت ميزي إلى القول:

ـ رأيت أن أوقظك يا آنسة، الساعة الآن تجاوزت الحادية عشرة. وقد أخبرتني السيدة شارد أنك لم تكوني بحالة جيدة ليلة أمس.

ـ نعم، هذا صحيح يا سيدة أرمسترونغ، لا بد أنني تعبت أكثر مما ظننت.

ـ نعم يا آنسة.

ـ هل هذا قميصك يا آنسة؟

وقدمت المرأة الصينية إلى راكيل، ثم انحنت ترفع القميص.

ـ ماذا؟... آه، نعم هذا هو، شكراً يا سيدة أرمسترونغ، هلاّ تركته على طرف الفراش؟

ـ نعم، يا آنسة.

ورفعت القميص إلى حافة السرير، ثم نظرت إلى موضع قدميها مترددة، وأضافت قائلة:

ـ أتريدين شيئاً آخر يا آنسة؟

ـ كلا. كلا، الفطور يبدو لذيذاً...

وعلت وجهها ابتسامة وهي تتأمل بشهية عصير البرتقال والمربى والخبز المحمص:

ـ شكراً لك، هلاّ أخبرت السيدة شارد بأنني سأنزل بعد نصف ساعة؟

ـ حسناً يا آنسة، إنه صباح جميل ومن المؤسف أن يفوته الإنسان.

ـ نعم... ولكن... هل استيقظ الجميع؟

ـ الجميع ما عدا الآنسة هيلتون، أما والداها فتناولا طعام الإفطار مع السيد والسيدة شارد، وبالنسبة لروبين وزوجته فهما يتناولان إفطارهما الآن.

عضت راكيل على شفتها العليا مترددة:

ـ و... وجيم؟

بدت الدهشة على مدبرة المنزل:

ـ ألم تعلمي يا آنسة؟ لقد سافر منذ نصف ساعة.

ـ سافر؟

ـ نعم، ألم تعلمي أنه تلقى مخابرة تليفونية من الاستديو؟

فأجابتها شاحبة الوجه: «كلا».

ـ نعم، هذا ما حصل، يبدو أنهم يريدونه أن يسافر إلى أميركا لحضور اجتماع عالي المستوى أو ما شابه. وعلى كل حال، لقد ذهب على الرغم من توسلات أمه ورجائها ألا يرحل.

ـ ولكن... ماذا عن ساقه؟

- هذا ما نبهه إليه أمه وأبوه، لكنه أكدّ أنه سيتصرف، وأنه ليس بمعاق، وأن وظيفته علمته أن يقبل بما تأتي به الحياة. لقد أرسلوا إليه سيارة لتقله إلى مطار نيوكاسل، ومن هناك يستقل طائرة إلى لندن.

- هكذا إذن، لم أعلم بهذا...

قالت ذلك وقد غمرها فجأة فراغ غريب.

- نعم، هذا ما أراه، هل تشعرين بصداع؟ تبدين شاحبة للغاية.

حاولت راكيل أن تتمالك نفسها:

- سأكون بخير عندما أشرب هذه القهوة.

غادرت ميزي الغرفة والشكوك تتضاعف على وجهها... لربما استغربت حضور راكيل إلى هذا المنزل. ففي عالم ميزي ليس مألوفاً أن تعامل أسرة ما صديقة سابقة لابنهم كصديقتهم الحميمة، ومع أنها لا شك تحبها، إلا أن الوضع بدا لها غير طبيعي.

شربت راكيل قهوتها، وهي ترغم نفسها على إبتلاع نصف قطعة من الخبز المحمص ثم نهضت من سريرها، تقنع نفسها أن غياب جيم سيسهل عليها الأمور هنا... لكن شعوراً مزعجاً بالقلق استمر يسيطر عليها منذ علمت أنه عاد إلى لندن! ما كان له أن يرحل، وأخذت تفكر بأسى... فلو لم تكن هنا، لبذلت أمه جهداً اكبر كي تقنعه بالبقاء، وماذا عنها هي؟ أتقوى على البقاء؟

عندما قامت عن السرير عثرت قدمها بشيء ناعم فنظرت إلى الأسفل وإذا بها ترى فردة من جورب جيم، كان ملقى على الأرض، وفي الحال عاد إليها تردد ميزي وهي تنظر إلى موقع قدميها، يا إلهي! لا عجب أن ميزي ظنتها تعلم برحيل جيم! وشعرت بوجهها يلتهب احمراراً.

استحمت ثم ارتدت قميصاً وبنطلون جينز، وبعد ذلك أخذت تفكر في خطوتها التالية: أتخبر مخدومتها؟ وإن فعلت، هل ستذكر ليز لها ذلك؟ هذا غير محتمل، لكن الواقع أن ميزي ستسيء الفهم.

حملت صينيتها ونزلت بها إلى المطبخ حيث قابلت ليز نفسها خارجة

منه. ابتسمت لها والدة جيم بلطف، وبعد أن أخبرتها بأن آل هيلتون سيرحلون عقب الغداء مباشرة، عادت إلى شؤونها وكأن شيئاً لم يحدث، لم تذكر لها جيم ولا رحيله، فافترضت راكيل أن ميزي لم تخبرها بعد.

كانت ميزي تغسل الخضار... ما إن وضعت راكيل الصينية حتى إبتسمت لها ميزي شاكرة، ثم سألتها إن كانت تشعر بتحسن.

ردت راكيل باختصار:

- إنني بخير، هل يمكنني تقديم المساعدة؟

- لا أظن ذلك، الغداء مكوّن من لحومات باردة وطبق من السلطة، أما هذه الخضار فأعدها للعشاء ونحن لن نستقبل ضيفاً غريباً.

أومأت راكيل: «وأنا»...

التفتت ميزي إليها:

- حسناً، إنك من الأسرة، أليس كذلك؟ أو تقريباً.

- كلا، حتى ولا (تقريباً).

ثم عادت تقول بعد لحظة:

- ميزي، أعلم بأنك رأيت فردة الجورب منذ قليل.

فقاطعتها:

- ليس هذا من شأني، لا يهمني ما تفعلان أنت وجيم.

تنهدت راكيل:

- أردتك فقط أن تعلمي...

قالت ميزي بفتور:

- أنا أهتم بشؤوني فقط لا غير، لكنني أعرف جيم منذ طفولته يا آنسة، وأعرف حقيقة شعوره نحوك...

- ميزي!

هذه المرة، نسيت راكيل التهذيب ولحسن الحظ لم تلاحظ مديرة المنزل ذلك:

- أصغي إليّ. إذا عدتما إلى سابق عهدكما، لن أسرّ وحدي بذلك،

وإنما تلك أيضاً.

وأشارت برأسها فأدركت راكيل أنها تعني ليز.

ـ إنها دائمة القلق عليه، أما زوجته فليست سوى مصدر للازعاج.

وهما يقومان نحوها بواجبهما على أكمل وجه.

أحست راكيل أنه لا يحق لها أن تتحدث عن بيتسي مع مدبرة المنزل، لكن فضولها تغلب عليها.

ـ هل... رأيت زوجته، يا سيدة ارمسترونغ؟

اكتسى وجه ميزي مرارة محيّرة فأخذت تقطع الخضار بوحشية وقالت:

ـ نعم. رأيتها عدة مرات، لقد اعتاد أن يحضرها إلى هنا، إلى أن حدثت المشاكل مع الفتى مارشال.

ـ الفتى مارشال؟

ـ نعم، الفتى تيري مارشال صاحب الكاراج، ألا تعرفينه؟

شعرت راكيل بجفاف في فمها:

ـ أتعنين ذلك الشاب الذي يسميه روبرت (زير النساء)؟

قالت ميزي مكشرة:

ـ ذاك هو، حسناً، بعد ذلك اعترض الجميع على استقبالها هنا.

أخذت راكيل تحدّق في رأس ميزي المنحني، وهي تتحرق شوقاً لتعرف ما فعلته بيتسي بالضبط، ولكن هناك حدود حتى لجرأتها، وهكذا ابتعدت نحو الباب. عند ذلك تكلمت ميزي مرة أخرى:

ـ أنا لن أخبر السيدة شارد، إذا كنت قلقة من هذا الأمر. فلديها ما يكفي من الهموم.

ولم يسع راكيل إلا أن تشكرها وهي تخرج.

كان الغداء هادئاً خفيفاً لا تكتنفه بهجة اليوم السابق ومرحه. حتى روبين جلس هادئاً واجماً، وسرعان ما كشفت سر ذلك عندما مرت صدفة بغرفة الجلوس، إذ تناهى إليها صوت نانسي تذكر اسم أنجيلا بلهجة

عنيفة... فاستنتجت أن أنجيلا حوّلت اهتمامها إلى روبين، بعد اختفائها وجيم في آخر السهرة. وبما أن راكيل تعرف جيداً كم روبين حساس تجاه الجميلات، فقد أدركت ما حدث.

أما أنجيلا فبدت كتيبة ثقيلة الجفنين، وأخذت ترمق راكيل بنظرات خالية من أية مودة. وتكهنت هذه أن أنجيلا عرفت أين اختفى جيم، وعلمت برحيله هذا الصباح. فإذا كانت قد فكرت في استعمال روبين لإثارة غيرته فقد فشلت خططها جميعها... وعندما رحل آل هيلتون، هان الوضع قليلاً، إذ ارتاح الجميع بعد الغداء في غرفة الجلوس بجانب المدفأة هاربين من جو الشتاء الرمادي. لكن رحيل جيم ظل يلقي بثقله على كل فرد بطريقته الخاصة.

أما راكيل فجاهدت لتصوّر الأحداث في ذهنها... ستعد نفسها بالراحة، بعد رحيل جيم، وستقتنع حتماً بذلك. ولكن الأمر لم يجر هكذا، فمع انتهاء الميلاد، وانقضاء الأيام الخمسة قبل رأس السنة، ساورها خمول كبير لم تتصور أن يستبد بها قط، ووجدت نفسها تحاول أن تفسر عودتها إلى لندن، من دون أن تجد الكلمات المناسبة. أما ليزا فانطوت بشكل غريب طيلة فترة بعد الظهر، وعند تناول الشاي، اعتذرت لأنها تشكو من صداع، ولأول مرة تلحظ راكيل ضعفاً في ملامحها لم تره من قبل، وتساءلت إن كان رحيل جيم المفاجىء قد ولّد في أمه كل تلك الكآبة، ولهذا شعرت بالسرور كونها لم تصرّ على الرحيل مباشرة بعد وصولها.

لم تنزل ليز من غرفتها مرة أخرى ذلك اليوم، بل طلبت من روبرت أن يبلغهم اعتذارها. وهكذا تناولت بقية الأسرة عشاء صامتاً قبل أن يذهب الجميع إلى الفراش باكراً... غادرتهم الرغبة في الحديث بعد رحيل جيم واعتكاف ليز في حجرتها. وعندما أصبحت راكيل في غرفتها، شعرت بثقل الأحداث ينهمر على كتفيها كحمل من رصاص.

أين هو جيم الآن؟ علمت من أبيه وأخيه أنه سيمضي الليلة في

انكلترا، ليطير غداً إلى أميركا، وأخذت تفكر أين، ومع من سينام، هل سيذهب لرؤية بيتسي؟ هل من عادته أن يودعها قبل السفر؟ أم أنه سيمضي الليلة في شقته؟ شقته المترفة تلك التي تذكرها راكيل جيداً؟ من المؤكد أنه يملك هناك كل ما يريده، ثم يستقل سيارة إلى المطار عند الصباح.

استلقت راكيل في فراشها تحت الأغطية، ستنام الليل من دون خوف أو إزعاج. ولكن، لسبب ما، لم ترق لها هذه الفكرة كثيراً. من المحال ألا تقارن بين جرحها السابق وشعورها الغامض الآن. حينذاك، أمضت أسابيع لم تذق فيها طعم النوم، تتقلب في فراشها وتتصوره نائماً مع بيتسي، لكن الأمر أضحى اليوم أكثر صعوبة إذ تكتشف أن تأثيره عليها ما زال هو هو.

عندما لم تنزل ليز إلى تناول الإفطار في الصباح التالي، قلقت راكيل واندفعت إلى روبرت تسأله أن تقدم يد المساعدة فقال روبرت برقة:

ـ حسناً، أظنها ستسر لبضع كلمات تتبادلها معك..

وفي وقت لاحق من الصباح، دخلت غرفة نوم ليز وروبرت، فتلاشى خوفها. لكن قلقها أخذ يزداد. بدت شاحبة، منهكة، وبداها تنقبضان بضيق فوق غطاء السرير فيما حفر الألم معالمها بوضوح، لكنها عندما رأت راكيل، عادت إليها ابتسامتها الدافئة، وأخذت تربت على السرير وهي تدعو الفتاة إلى الجلوس بجانبها.

بعد أن انحنت راكيل تقبلها في وجنتها تنهدت قائلة:

ـ آسفة لهذا يا عزيزتي.

هتفت راكيل:

ـ لا تكوني سخيفة! إن اهتمامنا ينصب عليك أنت، والآن هل يمكنني أن آتيك بشيء؟ يقول روبرت إنك لم تأكلي شيئاً.

فردت ليز بابتسامة مغتصبة:

ـ كلا، أنا لست جائعة، أنا آسفة فقط لأن هذا يحدث في وجودك ووجود روبين. كم أردت أن أبقي على سعادة هذه المناسبة.

قالت راكيل بإخلاص:

ـ بل كانت رائعة، صدقيني لقد أمضينا جميعاً وقتاً ممتعاً.

بدا الارتياب على وجه ليز:

ـ حتى أنت؟ حتى جيم؟ آه، يا ليته لم يضطر إلى الرحيل بهذا الشكل! لم يكن هناك وقت كاف.

حاولت راكيل التظاهر بالتفاؤل:

ـ حتماً سيعود.

لكن ليز لم تقتنع.

ـ كلا، بل لن يعود... أنا أعرف ذلك، إنه ذاهب اليوم إلى أميركا، والله يعلم متى سنراه مرة أخرى.

وتأوهت بتعاسة، ودهشت راكيل وهي تراها تغالب دموعها:

ـ آه، يا راكيل، كانت هذه فرصة رائعة، والآن... الآن قد أفسدتها!

ـ أفسدت ماذا؟ آه يا ليز، إذا كان الأمر يتعلق بي وبجيم...

قاطعتها ليز بتوتر:

ـ إنها ليست كذلك.

ـ ما هي إذن؟ أنا لا أفهم. أتراني أصبحت بلهاء؟

أمسكت ليز بيد راكيل تضغط عليها بشدة:

ـ حبيبتي.. أريد منك العون.

ـ العون؟

ـ نعم.. كان عليّ أن أخبر جيم بأمر ما لكني... ولكني لم أفعل. ستكونين أنت في لندن عندما يعود، وأنا... أريدك أن تخبريه.

هزت راكيل رأسها من جانب لآخر:

ـ آه، يا ليز، سأفعل أي شيء لأجلك، وأنت تعلمين هذا... أما... أما رؤية جيم، فهذا شيء آخر.

ـ لماذا؟ ظننتكما صديقين؟ بدوتما لي... حسناً، تكنان المودة لبعضكما البعض، هل كان كل هذا مجرد تظاهر؟

احمر وجه راكيل:

ـ حسناً، بالنسبة لتبادل الحديث، ليز، إذا أردت أن تتكلمي مع جيم لِمَ لا تتصلين به تليفونياً وتخبرينه بالأمر عندما يعود إلى لندن؟ قد تتمكنين من إقناعه بأن يأتي في عطلة نهاية الأسبوع...

ـ كلا... كلا. سيكون الأوان قد فات حينذاك.

حدقت راكيل فيها:

ـ الأوان قد فات؟ ماذا تعنين يا ليز؟ وما هذا كله؟ لماذا أرسلت باستدعائي؟

ـ أظن عليّ أن أعترف بكل شيء...

ـ تعترفين... كل شيء؟

تجنبت ليز نظراتها:

ـ نعم. راكيل، مع كل حبنا، أنا وروبرت، لك، فإننا لم نسألك تمضية الميلاد معنا لمجرد أننا نفكر فيك كثيراً.

ـ كلا؟

وشعرت راكيل بشيء من الانقباض في صدرها، ما الذي تتحدث عنه ليز، يا ترى؟ هل كانت تعلم أن جيم سيأتي إلى البيت فدعتها هي أيضاً، ولكن لا... هذا مستحيل، فهما لم يتوقعا إصابته وعودته إلى إنكلترا عاجزاً!

أجابت ليز وهي تمسك بيدها مجدداً:

ـ كلا. كنا نريد أن نراك. طبعاً أردنا ذلك، وأنت تعلمين هذا، ولكن... حسناً، لكننا دعوناك لأجل جيم.

ـ ولكن ما كان لك أن تعلمي...

ـ عن إصابته؟... كلا طبعاً! كلا يا عزيزتي، لقد دعوتك إلى هنا لأنني أردتك أن تتحدثي إلى جيم عني، أردت أن أطلب منك رؤيته بعد عودتك إلى المدينة.

هنا تملك الإرتباك راكيل تماماً.

ـ ولكن، لماذا؟ تعلمين لا شك أننا لم نلتق منذ...

فأجابت ليز متأوهة:

ـ آه، أنا أعرف كل شيء عن هذا، أعرف أنكما افترقتما وانتهى بينكما كل شيء... ولكن.. أنا أعرف ابني، يا راكيل، أعرف أنه ما زال... حسناً، دعينا نقول إنه لن يرفض رؤيتك، خاصة إذا رغبت في محادثته.

ـ أتعنين أنني رفضت رؤيته حين كان يرغب في محادثتي؟

فهزت ليز رأسها:

ـ كلا يا عزيزتي، كلا. أنا لا أنتقدك... ليس هذا ما أفكر فيه، إذ لا يمكنني التأثير عليك بأي شكل كان. عليكما أن تسوّيا خلافاتكما بنفسكما، كلا... إن هذا أمر شخصي يخصني أنا... راكيل... أظنني أعاني من مرض السرطان.

وعندما حدقت فيها الفتاة بكرب مفاجيء، أضافت تقول:

ـ لن أموت... ليس الآن على الأقل. ولكن عليّ أن أجري عملية جراحية، وأريد أن أخبر جيم قبل... قبل العملية.

هتفت راكيل بذعر: آه، يا ليز...

ـ هذا مرض شائع يا عزيزتي، كثيرات من النساء في سني يصبن به، ومن يعلم؟ قد لا يكون الورم خبيثاً، لن يتأكد الأطباء من ذلك قبل فحصه.

هزت راكيل رأسها:

ـ أواه، يا ليز، كان عليك أن تخبريني.

ـ متى؟ عند وصولك؟ أم ليلة الميلاد؟ أو ربما يوم الميلاد؟ لم أشأ أن أفسد عليكم الحفلة، أردت أن يكون هذا الميلاد سعيداً للغاية، لنا جميعاً. لصدت أن أخبر جيم بذلك هذا الصباح.

ربتت راكيل على يدي ليز:

ـ أتشكين الآن من هذا حقاً، وليس من الصداع؟

عادت ليز تتنهد:

ـ آه، أعاني من صداع خفيف. أظن الجهد الذي بذلته في تنظيم الحفلة قد أتعبني فأنا أشعر بإرهاق بالغ... خاصة بعد رحيل جيم بهذا الشكل...

ـ هل كدّرك هذا؟

وعندما أومأت ليز، قالت راكيل:

ـ تعلمين أنه ما كان ليرحل لو أنك أخبرته.

قالت ليز متململة:

ـ أعلم هذا، لكنني لم أشأ أن أعيقه عن عمله، وعلى كل حال، ما كان بإمكاني أن أخبره حينذاك، وفي آخر لحظة، بدا لي بالغ الإرهاق... هل تجادلتما، أنت وهو، الليلة الماضية؟

لم تستطع راكيل النظر إلى وجه ليز، فأحنت رأسها:

ـ نوعاً ما.. ولكن ماذا عن روبين ونانسي؟

ـ آه! روبرت سيخبر روبين، إن أمره لا يكدرني فلديه نانسي والطفلة ليزا، كما ترين.

ترددت راكيل لحظة، ولكن كان لا بد لها من القول:

ـ حسناً، وجيم لديه بيتسي لترفه عنه. أليس كذلك؟

لكنها أجفلت عندما هتفت ليز بغضب:

ـ ليس لديه أحد، إنه... إنه طلّق بيتسي منذ أكثر من عام، ألم تعلمي بذلك؟

أجابت راكيل مرتجفة:

ـ كلا، وعلى... على كل حال، فهذا لا يشكل أي فرق.

قالت ليز والهزيمة تبدو عليها:

ـ لا يشكل أيّ فرق؟ أظنني كنت أرجو الكثير، ظننتك تعلمين.

ضغطت راكيل على شفتيها بشدة: «ليز»...

ـ هل ستخبرينه عني؟

بدا على ليز أنها لن تقبل بأيّ عذر، أرادت جواباً واحداً فقط، نعم أو

لا. ووجدت راكيل نفسها في الفخ.

ـ متى... متى سيعود؟

فقالت ليز بتعب:

ـ أظنه سيعود بعد عشرة أيام. لهذا أردتك أن تتحدثي إليه. إن.. إذ العملية ستجري لي بعد أسبوع من يوم الخميس، أحسبه اليوم الذي يعود فيه.

سحبت راكيل نفساً مرتجفاً:

ـ ماذا عليّ أن أخبره؟

بدا الارتياح على ليز.

ـ فقط... الحقيقة... أنهم... أنهم اكتشفوا ورماً في جسدي، وأنه عليّ استئصاله.

ـ وأين ستكونين؟ أعني كيف سيتصل بك؟

ـ روبرت سيعطيه التفاصيل كلها، آه يا راكيل، كم أنا شاكرة لك.

تمنت راكيل لو أنها تملك مثل قناعة هذه المرأة. فما يدريها أن جيم سيتلقى منها الخبر أفضل مما يتلقاه من غيرها، وبعد الطريقة التي افترقا بها، من غير المحتمل أن يرحب بأيّ نبأ منها. ثم لا شك أن أباه سينقل إليه الخبر بشكل أفضل.

عادت تقول، وهي تبحث عن كلمات تعبر بها عن غايتها: «ليز»...

لكن المرأة بدت تعبة جداً ولا تستطيع متابعة النقاش، فتمتمت وعيناها مغمضتان:

ـ أنا أعلم أنك لن تخذليني يا راكيل، فلديك قلب عطوف، أدرك هذا، وأعلم أنك لن تبلغيه الخبر كيفما اتفق.

نهضت راكيل وهي تتمنى لو تملك ثقة ليز وقدراتها، لكن مزيجاً من التوجس والذعر البالغ ظل يسيطر عليها. فهي الآن تخشى أن تفقد احترامها لنفسها اكثر من أيّ وقت مضى، وذلك رغم كل عزمها

وتصميمها، فاحتمال رؤية جيم أحدث فيها اضطراباً كبيراً... ما كان لجيم أن يعني شيئاً بالنسبة إليها، لكنه يعني... ويعني الكثير!

* * *

٩ ـ الفراق الأبدي

رحبت راكيل كثيراً بالعودة إلى شقتها بعد طول غياب.

وبعد أن أشعلت المدفأة سكبت لنفسها فنجان شاي. ثم راحت تمضي بعض الوقت وهي تجول في شقتها ذات الغرفتين والمطبخ الصغير، لتتآلف معها بعد ذلك المنزل الفسيح.

لكنها شعرت هنا بالارتياح لأنها عادت سيدة نفسها وربة هذا البيت... فهي تفعل ما تريد ساعة تريد ولا تهتم إلا بنفسها. لا شك أن الإقامة في «كلير هايتس» مريحة للغاية، وهي شاكرة لآل شارد لطفهم، لكن وجود جيم دمّر كل معنى للحياة الطبيعية، كما أن رحيله تسبب لها بالضياع.

كم شعرت بالعطف البالغ نحو ليز خاصة بعد أن اكتشفت السر الذي حاولت عبثاً إخفاءه، فلطالما بدت لها امرأة شديدة السيطرة على نفسها بالغة الكفاءة، ولكن ها هي تجدها فجأة، ككل إنسان آخر، عرضة للآلام والضعف...

بعد رحيل جيم، أرادت راكيل أن ترحل بدورها، ولكن قد يبدو هذا غدراً منها، وعلى كل حال، هي مدعوة لقضاء أسبوع، فما هو عذرها للرحيل بعد سفر جيم؟ كما أن راكيل اعتبرت نفسها مسؤولة عن إدارة المنزل خاصة بعد وعكة ليز، واستغراق نانسي في شؤونها الخاصة، ولعلها أرادت بذلك أن تريح روبرت من هذه المهمة، ثم تمنحه المزيد من الوقت ليمضيه مع زوجته.

أخبر روبين بالأمر طبعاً، لكنه تقبّله بالتفاؤل.

ـ إذا كانوا سيجرون عملية، معنى هذا أنهم يأملون بالشفاء. بإمكانهم القيام بالأعاجيب هذه الأيام، ماذا عن العلاج بالراديوم وغير ذلك؟ منذ يومين فقط كنت أقرأ عن...

قال ذلك لراكيل وهي تخلي مائدة الغداء في أحد الأيام، فقاطعته بجفاء:

ـ حسناً، دعنا نأمل أنك على حق، والآن أتحمل عني هذه الكؤوس إلى المطبخ؟ أظن ميزي تنتظر لتغسلها.

كشر روبين، لكنه حمل الكؤوس واتجه نحو الباب وهو يقول:

ـ سمعت أنهم كلفوك بمهمة إخبار جيم، يا للهول! إن أمي لا تدع شخصاً لشأنه، أليس كذلك؟

تنهدت راكيل: «روبين»...

ـ لكن هذا صحيح، أليس كذلك؟ لا أظن جيم يشكرك للتدخل مرة أخرى.

أخذت راكيل تتأمله: «أحقاً؟».

ـ خصوصاً إذا صحّ ما سمعته.

ـ إنك تتخيل الأشياء.

ـ أحقاً؟ وأظنني تخيّلت ذلك الاتصال التليفوني الذي قام به صباح الأحد.

فقطبت جبينها:

ـ صباح الأحد؟ أتعني يوم رحيله؟

ـ نعم، فمهما قال، لم يتصل به الاستديو، بل هو الذي اتصل بهم.

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

ـ أخبريني أنت.

فاحمر وجهها:

ـ ليس لديّ أدنى فكرة.

تأمل روبين وجهها الملتهب لبرهة:

ـ أحقاً؟ آه، حسناً، ربما أراد الرحيل.

فقالت بجفاء وهي ترى ما يعنيه:

ـ إن عمله يحتم عليه ذلك.

ـ لقد قبل العمل، لكنني لا أراهم عرضوه عليه.

أرادت أن تمرّ بجانبه إلى المطبخ، وإذ رآها تحمل صينية ثقيلة، تنحّى جانباً، لكن الدمار كان قد حصل، وأخذت راكيل تقنع نفسها أنها لا تكترث إطلاقاً لرحيل جيم المفاجىء، إلا أن هذه المهمة باتت تصعب في نظرها شيئاً فشيئاً.

استأنفت عملها في الاستديو صباح الاثنين وهي تشعر بالارتياح بعد عشرة أيام إجازة، وقد تمكنت من تجنب أحاديث العطلة الطويلة بعد أن تذرعت بعملها المتراكم...

من المفروض أن يعود جيم يوم الخميس، كما قالت ليز. في الأيام الثلاثة الأولى من الأسبوع أنساها عملها كل شيء، ولكن من المستحيل تجنب التفكير حين تعود وحيدة إلى بيتها، وهكذا باتت تأكل القليل وتنام نوماً خفيفاً. وعندما حلّ يوم الخميس، لم تبصر في المرآة إلا عجوزاً، فقد ارتسمت الهالات حول عينيها كما برزت وجنتاها وتوترت شفتاها.

قد يستقل جيم طائرة الصباح من نيويورك، وهذا يعني أنه يصل مطار هيثرو في لندن حوالي التاسعة، وتبعاً لهذا سيبلغ شقته حوالي العاشرة... لكن هذا لم يعجبها، ولهذا قررت الاتصال بالاستديو لمعرفة موعد وصوله إلى هناك بالضبط، فليز ستخضع للعملية بعد الظهر، كما أخبرها روبرت عند اتصاله بها. وتعلم راكيل كم تودّ أن يكون ابنها بجانبها حين تفتح عينيها. فإن تعذر ذلك، يمكنها على الأقل أن تترك له خبراً عاجلاً حتى ولو اضطرت إلى إزعاج مالك الشقة في منتصف الليل.

ساورها شعور بالغرابة حين أقدمت على الاتصال بالاستديو حيث كانت تعمل، ثم شعرت بالارتياح عندما اكتشفت أن صوت موظفة

الإستعلامات غير مألوف لديها، فهي تفضل التحدث إلى شخص يجهلها تماماً. أعطتها اسمها وطلبت منها أن توصلها بمخرج أعمال جيم شارد، فسألتها الفتاة:

ـ أتريدين التحدث إلى السيد شارد؟

فأجابت راكيل بصبر:

ـ كلا، فهو ليس موجوداً، ولكنني أحمل له خبراً شخصياً، وأريد أن أعلم موعد عودته.

ساد الصمت بعد ذلك للحظة فتكهنت راكيل أن الفتاة تبلغ سكرتيرة السيد ماكس غيلكريست مخرج أعمال جيم، وتساءلت إن كان المخرج يعرف اسمها.

على كل حال، عندما أجابها صوت رجل مألوف نوعاً ما، تنهدت بصبر نافد. لقد أوصلوها، لا تدري كيف، بمكتب جاك موريسون. وعاد إليها الصوت يسألها، وعندما لم يسمع جاك منها جواباً، سألها مشككاً:

ـ أنت راكيل ولیامز، أليس كذلك؟

فأرغمت نفسها على إجابته:

ـ آسفة يا سيد موريسون، لأن خطأ قد وقع، أنا... حسناً، أردت الحديث مع السيد جيلكريست، فوصلتني السكرتيرة بك من باب الخطأ.

ـ هل هذا صحيح؟ لكنني ظننتها قالت إنك تريدين الحديث إلى جيم، لقد كان هنا منذ لحظات وقد خرج لفترة قصيرة.

جمدت راكيل وحمدت الله على أنها كانت جالسة. لم تستطع أن تصدق ما يقوله السيد موريسون، وشعرت بأطرافها ترتجف.

ـ راكيل، راكيل، هل ما زلت على الخط؟

كان الاهتمام يبدو الآن في صوته، وبذلت راكيل جهداً كبيراً لتقول:

ـ قلت... قلت إن جيم موجود... كان موجوداً.

ـ هذا صحيح، يمكنني استدعاؤه لأجلك إذا شئت، أعتقد أنه ما زال في الممر..

ـ كلا، انتظر.

لا يمكنها أن تخبر جيم بالأمر تليفونياً، وإلا لاستطاعت أمه ذلك بنفسها، وقد وعدت راكيل ليز بأن تخبره بالأمر بكل رقة، وعادت تقول:

ـ ظننته... حسناً، ظننته ما زال في نيويورك.

ـ نيويورك؟ ولكن لا بد أنك تعلمين أنه لم يذهب إلى نيويورك، معذرة، ولكن ألم تمضي الميلاد معه؟ في منزل والديه.

ـ أنا... نحن... لقد عاد إلى لندن منذ عشرة أيام لكي... لكي يؤدي عملاً في نيويورك.

قال موريسون بحزم:

ـ كلا، إلا إذا كان يعمل مع شركة تلفزيونية أخرى.

قال ذلك ضاحكاً، ثم عاد إلى رزانته:

ـ لم يسافر إلى أي مكان يا راكيل منذ عاد إلى لندن الأسبوع الماضي، ولو فعل لعلمت بذلك حتماً.

قالت وهي تشعر بشبه إغماء: «أحقاً؟».

ـ نعم، اسمعي يا راكيل، إذا أمكنني القيام بشيء...

ـ كلا، شكراً.

فكل ما تتمناه راكيل الآن هو أن تضع السماعة جانباً وتفكر في ما سمعت، لكنها أرادت أن تخفف من شكوك السيد موريسون، من دون أن تجعله يخبر جيم باتصالها هذا:

ـ أتمنى... حسناً، أتمنى لو تنسى اتصالي هذا.

قال بحيرة:

ـ أنسى اتصالك؟ أتعنين أنك تفضلين ألا أذكره لجيم؟

ـ نعم.

ـ أتريدينني أن أرتب أمر تحويل هذا الاتصال إلى «ماكس جيلكريست»؟

ـ آه، كلا، ليس هذا ضرورياً الآن.

قال متردداً:

- حسناً جداً، راكيل، ماذا حدث؟ هل من شيء؟ يمكنك أن تخبريني، إنني وجيم... حسناً، إننا صديقان كما أننا متصاهران.

- متصاهران؟

كررت راكيل هذه الكلمة وهي تشعر بالدوار، فرد عليها بنفاد صبر:

- من المؤكد أنك تعلمين هذا.

فقالت بصوت مرتجف:

- كلا، هل تعني أنك...

- أنني والد بيتسي؟ نعم. ألم يخبرك جيم بذلك؟

- كلا، أنا...

- ظننتك تعلمين، ظننته أخبرك بالموضوع.

هتف بذلك غير مصدق.

- ولكن لا بد أنه أخبرك بكل شيء قبل أن تفترقا؟

أبعدت راكيل السماعة عنها:

- كلا، كلا، أنا آسفة، صدقني، ليس لديّ فكرة عن ذلك.

فقال برفق:

- لا بأس، يا عزيزتي، إنني آسف فقط لأنكما، أنت وجيم، لم تعودا إلى بعضكما البعض. إنه رجل ممتاز ويستحق قليلاً من السعادة.

فشهقت قائلة:

- وكيف.... كيف يمكنك أن تقول هذا وأنت والد بيتسي؟

زفر السيد موريسون بقلب مثقل:

- ولِمَ لا؟ لقد تعلمت منذ وقت طويل أن على الإنسان أن يكون واقعياً، يا راكيل، لقد بقيت وقتاً طويلاً أخدع نفسي.

لم تستطع راكيل أن تصدق أذنيها:

- أتعني أنك تغاضيت عن جيم؟

فقاطعها بهدوء:

- عن السعادة التي وجدها معك؟ طبعاً، لِمَ لا؟ الذنب ذنبي أنا، كل ما حدث ذنبي أنا. لو أنني لم أغمض عيني عن الحقيقة.

- آه، لا أريد أن أسمع هذا! أرجوك، الماضي انتهى.. إنني.. أريد منك فقط ألا تخبر جيم أنني اتصلت بك، هذا كل شيء، وشكراً.

أقفلت السماعة، ثم أراحت مرفقيها على المكتب وهي تخفي وجهها بين راحتيها. رباه، أي نوع من الرجال موريسون، لكي يقف ضد ابنته بهذا الشكل؟ وأي نوع من الرجال هو جيم لكي ينتهز ذلك؟

ظلت ترتجف حتى شعرت بالمرض. أن تدرك أن جيم هنا في لندن، وأنه لم يغادر البلاد على الإطلاق، كل هذا ملأها سخطاً... كيف يخدع والديه بهذا الشكل؟ كيف يلفق هذه المهمة من دون أن يغيّر رأيه؟ كان روبين صادقاً.. فجيم لم يتلقَ اتصالاً هاتفياً من لندن، بل رحل لأن هذا يناسبه، ورفضت الاعتراف بأن حقيقة واضحة تسبب لها هذا الاستياء كله: لكنه حقاً أراد الابتعاد عنها.

* * *

مع حلول وقت الغداء، استعادت راكيل سيطرتها على نفسها، فأدركت أنها لو اتصلت الآن بجيم، فسيصل إلى نيوكاسل في الوقت المناسب ليكون بجانب أمه. صحيح أنها تكره رؤيته خاصة بعد ذلك الاتصال التليفوني بجاك موريسون، ولكن مهما بلغت كراهيتها عليها أن تقوم بذلك، وإلاّ فقد تزيد الوضع سوءاً.

وأخيراً، اتصلت بالاستديو مرة أخرى في الساعة الثانية عشرة، وهذه المرة طلبت الحديث مع جيم نفسه.

سألتها الموظفة:

- من أقول له يا آنسة؟

فقالت بحذر:

- الآنسة وليامز.

طال الصمت فيما هي بانتظار أن يجدوه، عرفت أنها ستكون سيئة الحظ لو أنه ذهب إلى الغداء، ولكن بعد دقائق سمعت صوت جيم الجذاب:

- راكيل؟

كان في صوته نبرة... ماذا؟ غضب؟ فضول؟

- راكيل، من أين تتصلين؟

أجابته بفتور:

- من مكتبي طبعاً، جيم، أنا أعلم أن اتصالي هذا متأخر، ولكن... هل يمكنني رؤيتك؟

ساد صمت آخر توترت فيه أعصابها. شعرت أنه يفكر، يحاول معرفة سبب دعوتها هذه.

أخيراً قال:

- أتعنين... هذا المساء؟ إنني مشغول تماماً حالياً، ولكن بإمكاننا أن نتعشى.

قاطعته باختصار:

- كلا، بل الآن، فكرت أننا نستطيع تناول الغداء معاً، إنني أتفهم انشغالك ولكن هذا، أيضاً، بالغ الأهمية.

تساءلت إن كان من الأسهل أن تراه في الاستديو. لكنها أرادت تفادي كل تلك الوجوه التي تعرفها، والتي تعرف جيداً سبب استقالتها من الشركة.

أخيراً قال:

- لا بأس، سنتغدى معاً، هل تمانعين إن التقينا في مطعم للوجبات الخفيفة؟

بدا لها هذا أسهل فما عليها إلا أن تخبره بالأمر ثم تذهب، فقالت:

- كلا، لا أمانع أبداً.

تواعدا على اللقاء في مكان عام يقع بين مكتبها ومكتبه. وبسرعة، أصلحت زينتها قبل مغادرة مكتبها، رغبت أن تبدو في أحسن مظهر، لكنها لم تكن مسرورة لمظهر عينيها الغارقتين بالشجن والأسى، ومع ذلك تخلت عن هذه الأفكار وخرجت تستأجر سيارة.

كان جيم ينتظرها خارج المكان وهو يدس يديه في جيبي بنطلونه، بينما لا تغطي صدره إلا سترة جلدية سوداء. لم تكن ملابسه تناسب هذا اليوم البارد من شهر شباط حيث الثلج ينذر بالتساقط، والرياح القارسة تعصف بآخر أوراق الشجر في الحدائق العامة، ولكن لم يبدُ عليه الشعور بالبرد. رأته الآن من دون عصا، بالرغم من أنه كان يعرج قليلاً عندما ساعدها على النزول من سيارة الأجرة، إلا أنها تذكر جيداً جوّ الكبرياء الذي أحاط وما زال يحيط به.

عندما وقفت بجانبه على الرصيف، ورفعت بصرها إلى وجهه، قال لها بصوت متهدج:

- راكيل!

ثم اقترب منها وكأنه يريد ضمها فهتفت تقول:

- إياك! ما الذي تفعله؟

ثم رأت عاطفته الحارة تفسح المجال لغضب يتطاير من عينيه. عند ذلك تراجع إلى الخلف وقد تصلبت ملامحه... ارتخت يداه إلى جانبيه وتوترت شفتاه، ثم سألها بجمود بلا فضول:

- لماذا تريدين رؤيتي؟

تنفست راكيل بتعب، وهي تشعر أنها لا تصلح لمثل هذه المهمة:

- هل.. هل ندخل المكان؟

مال برأسه بأدب ثم قال وقد بدت عليه الكآبة:

- آه، الغداء، نعم، طبعاً، علينا أن لا ننسى سبب قدومك.

- سأدفع ثمن غدائي.

قالت ذلك وهي تدخل، لكن جيم ضغط على شفتيه وهو يقول ببرودة:

ـ أخبريني فقط بما تريدين.

طلبت سندويشاً وكأس عصير، بينما لم يطلب سوى فنجان قهوة. انتظرت إلى أن جلس بجانبها، وقالت:

ـ لقد وعدت ليز بأن أتحدث إليك، إنها... حسناً، كانت تريد أن تتكلم معك بنفسها، لكن رحيلك غير المتوقع...

نظر إليها جيم:

ـ ألم تقولي لها إنها تضيّع وقتها؟

ردت بحيرة:

ـ تضيّع وقتها؟ ولماذا أقول لها ذلك؟

نظر إليها ساخراً:

ـ آه، هيا... إنك تعلمين كما أعلم ما الذي ترجوه أمي، بالنسبة إليّ وإليك. لماذا لم توضحي لها أنك أنانية جهنمية لا تهتم بمشاعر أحد عدا مشاعرها الخاصة؟

أجابت ساخطة:

ـ هذا ليس صحيحاً، إنني أهتم.. طبعاً أهتم بالآخرين، إنني اهتم بأمك.

بدا عليه الشك وهو يرفع فنجان القهوة ليشربه بجرعة واحدة، ثم قال بملل:

ـ والآن، تابعي كلامك، ماذا تريدك أمي أن تخبريني؟ أن أستمر في الأمل، بينما الأمل كله قد تلاشى؟

انزعجت راكيل بالرغم عنها، وقالت:

ـ كلا! جيم، لا أريد أن أتشاجر معك.

رفع حاجبيه: «كلا؟ ولِمَ لا؟ لعل الجوّ يصفو بيننا، يمكنني احتمال شجار قوي يخلصني من صورتك المتعفنة!».

نظرت راكيل حولها بقلق، ولكن، لحسن الحظ، لم يهتم بحديثهما أحد.

ـ جيم! ما أريد أن أخبرك به ليس أمراً شخصياً على الإطلاق. ليس لي على الأقل، إنها أمك يا جيم، إنها... إنها تخضع لعملية هذا اليوم.

واجهها بأعصاب متوترة:

ـ ما نوع العملية؟

أجابت وهي تنتقي كلماتها بعناية:

ـ إنها عملية فتح بطن، لاستئصال ورم...

هتف وقد عيل صبره:

ـ أتعنين سرطاناً؟

أجابت بقوة:

ـ هذا ممكن، ولكن لا يعلم أحد بعد إذا كان سرطاناً خبيثاً.

أخذ جيم يحك رأسه ذاهلاً:

ـ يا إلهي، منذ متى تعلم هذا؟

ـ لا أدري، ليس منذ وقت طويل، كما أظن، لكنها أرادت تأجيل العملية إلى ما بعد رأس السنة، لم تكن تريد إفساد الميلاد..

ـ يا إلهي!

تابعت بثبات: «ولهذا دعتني إلى قضاء الميلاد في بيتها، كانت تريدني أن أخبرك بنفسي، إذ لم تكن تتوقع منك الحضور كما ترى».

بدا القلق البالغ على جيم:

ـ عليّ أن أذهب... عليّ أن أذهب لرؤيتها.

ـ نعم.

ـ متى قلت ستجرى لها العملية؟

ـ بعد ظهر هذا النهار، لست واثقة من الوقت.

ـ إذن، إذا استقللت طائرة العصر، يمكنني أن أكون معها عندما تستيقظ.

ـ أظنها ستحب ذلك.

أومأ جيم برأسه، ثم نظر إليها:

ـ هل تأتين معي؟

هزت رأسها بالنفي:

ـ آه، كلا، أعني أنها ليست بحاجة إليّ، أرادتني فقط أن... أن أخبرك، كانت تظنك مسافراً، كما ترى، كلنا ظننا ذلك.

فرفع حاجبيه:

ـ وكيف عرفت أنني هنا؟

فتنهدت قائلة:

ـ لقد اتصلت بالاستديو حيث تعمل لأسأل عن الطائرة التي ستعود على متنها.

بدت الصلابة على وجهه وقال:

ـ فهمت، حسناً، لا يمكنك أن تلومني على ذلك، ارتأيت أن هذا أفضل.

فارتجفت شفتها السفلى:

ـ تعني الأفضل بالنسبة إليك.

لم يحاول إنكار ذلك:

ـ لا بأس، بعدما حدث بيننا، أدركت أنه عليّ الرحيل.

أحنت راكيل رأسها:

ـ لم يكن من داعٍ لذلك، كان يمكن أن أرحل أنا، لفضّلت أسرتك ذلك.

ـ هل قالوا هذا؟

ـ كلا، بل هذا واضح، أليس كذلك؟

وتوترت شفتاها، ثم تابعت:

ـ متى... متى ترحل مرة أخرى؟

رد بصوت خافت:

ـ لن أرحل، في الواقع إن «ماسوتا» كانت آخر مهمة لي. ألا يدعو هذا إلى السخرية؟

حدقت فيه:

ـ ماذا ستفعل إذن؟

ـ أعمل مستقلاً، أكتب، أخرج... أي ما يحلم به كل صحافي.

هزت راكيل رأسها:

ـ ولكن.. أيمكنك هذا؟

ـ ولِمَ لا؟ لست في ضيقة مالية. سوف أمهل نفسي سنة على الأقل كي أكتشف موهبتي الدفينة، فإن لم أنجح يمكنني دائماً العودة إلى المراسلة الصحافية أو الإخراج. يقول ماكس إنه سيجري لي اختباراً إذا كنت على عجلة.

ـ و... وهل ستبقى في لندن؟

فقطب جبينه:

ـ ربما، وربما لا. أظن ذلك يعتمد على صحة أمي، ولكن إذا أصبح كل شيء على ما يرام، ربما أرحل إلى الباسيفيك، إنني أحب تلك الجزر جنوب «فيجي».

استوعبت راكيل قوله من دون أن تلقي أية أسئلة أخرى. بالرغم من كل ما تحدث به نفسها، فإن فكرة رحيل جيم عن لندن نهائياً ملأتها بالذعر، إذ ستنقطع علاقتهما نهائياً. لن يصبح فقط بعيداً عن العين، وإنما بعيداً عن القلب أيضاً.

قال أخيراً وهو ينهي شرابه:

ـ حسناً، أظن هذا كل شيء، أليس كذلك؟

وبسرعة دفعت راكيل جانباً شطيرتها التي لم تكد تمسها، بينما أضاف:

ـ أظن عليّ أن أشكرك، كان عليّ أن اكون أكثر تهذيباً...

وهب واقفاً، فوقفت أيضاً.

ـ لا بأس في ذلك.

كانت تشعر بالتوجس وقد تصلب جسدها، فقال لها لاوياً فمه بإدراك

مفاجىء:

ـ لا تخافي، لن ألمسك، أنا أعرف أن فراقنا هذه المرة هو فراق أبدي.

أحقاً هذا؟ أحقاً؟ ولكن هذا التضرع المستميت لم يخرج قط من بين شفتيها، وبشكل ما، استطاعت راكيل أن تتبعه إلى الباب. وفي الخارج، بدّد الهواء القارس أي شعور بالاكتئاب، فأومأت إليه بثبات بكلمة الوداع.

قال باختصار:

ـ حظاً سعيداً.

ثم ابتعد عنها، متوارياً بين زحام القادمين إلى الغداء قبل أن تجيبه بكلمة.

* * *

اتصلت راكيل تليفونياً بمستشفى نيوكاسل ذلك المساء لتطمئن إلى حالة ليز، ولكنها حين أوضحت أنها ليست من أفراد الأسرة، وإنما صديقة فقط، طلبوا منها الاتصال مرة أخرى في الصباح. وتكهنت بأن الموظفين مشغولون جداً ولا يمكنهم إعطاء معلومات للغرباء حالياً.

وهكذا أجبرت نفسها على الانتظار حتى الصباح. من المؤكد أن كل شيء على ما يرام، وأنه التفسير الوحيد لتكتمهم... أخذت تتخيل ذلك سعياً منها للتخفيف عن نفسها، ولكن عبثاً! إذ لم تبدّد مطلقاً بذرة القلق التي أخذت تتكون داخلها.

كانت تفكر في جيم باستمرار، فكرت في الصدمة التي تلقاها عندما علم بمرض أمه، وتصورت الرحلة التي يقوم بها وحيداً إلى الشمال، دون رفيق يتحدث إليه أو يشاركه قلقه... كان عليها أن تذهب معه، وعنفت نفسها لرفضها بشدة، ثم عادت فنبذت هذه الفكرة، ماذا جرى لها؟ أتراها فقدت نهائياً ما بقي لها من كرامة؟ مهما حدث، فإن علاقتها بجيم قد انتهت، لكن هذا لم يمنعها من التوقف عن حبه.

ولأول مرة تعترف بضعفها، أخذ هذا الشعور يزحف إليها ببطء، لقد

بدأ في أول أمسية وصلت فيها إلى «كلير هايتس»، كما تدرك الآن. لقد ظنت أنه عطف، صحيح أن العطف شكّل فعلاً جزءاً منه، لكنه كان أكثر من ذلك، أكثر بكثير من مجرد شعور محايد. عندما عانقها جيم في الردهة، عندما سقطا معاً بين لمبات الشجرة، شعرت بمشاعرها القديمة تحيا من جديد، تلك المشاعر التي ماتت وانتهت... ولذلك غضبت ذلك الصباح، لأنها أدركت سهولة تأثيره عليها... لقد اكتشفت غدره، وزواجه الذي لا جدال فيه، ومع ذلك لا يمكنها أن تنكر مشاعرها، وأدركت بمرارة أن الحياة بدونه فراغ موحش.

عندما تحدث عن مغادرة لندن، امتلأت خوفاً وتوجساً وهي تواجه مستقبلاً خالياً من كل أمل، هل لهذا خُلقت؟ هل ستندم يوماً ما على ما فعلت؟

وما أهمية أفكارها هذه عندما يعلن جيم أن الحب بينهما قد انتهى، بينما لا تملك هي الجرأة على التقرب إليه؟

* * *

١٠ ـ الموت يفرّق . . . ويجمع!

لم يغالبها النعاس تلك الليلة إلا بعد وقت طويل، ومع أنها لا شك فقدت الوعي لفترة، إلا أنها استيقظت تماماً على جرس الباب عند السادسة. نهضت من سريرها، ثم ترددت لحظة وهي تتساءل من يكون الطارق. . . لم تتصور أحداً من جيرانها يوقظها في مثل هذه الساعة من الصباح.

عاد الجرس إلى الرنين بإلحاح اكثر، وعندما ارتدت معطفها المنزلي الوردي اللون، ارتفع الطرق على بابها يرافقه صوت جيم الضعيف المنهك منادياً:

ـ راكيل، راكيل، هل أنت موجودة؟ افتحي الباب بحق الله، أريد أن أتحدث إليك.

ركضت حافية القدمين الى الباب تفتحه، عند ذلك استقام جيم في وقفته بعد أن كان متكئاً على الجدار، ثم دخل إلى الشقة متثاقلاً.

كان فظيعاً، أخذت تتأمله للحظات قبل أن يتفوه بكلمة. بدا واضحاً أنه لم ينم، بينما نبتت لحيته على ذقنه. ظهر بالثياب نفسها التي كان يرتديها أمس أثناء الغداء، وقال بدون مقدمات:

ـ لقد ماتت.

انقبضت يدا راكيل، وهرعت إلى ظهر الكرسي تستند إليه. كانت شبه متوقعة لهذا، بينما كرر قوله وكأنه لا يستطيع تصديق نفسه:

ـ ماتت. . . أليس هذا أسوأ خبر يسمعه المرء؟

أشارت راكيل بعجز إلى الأريكة.

ـ إجلس، سأصنع قهوة بينما تستريح قليلاً.

ـ أليس لديك ما تقولينه؟ ألا تريدين أن تعلمي كيف جئت إلى هنا؟

أجابت متوترة:

ـ طبعاً أريد ذلك، وأنت تعلم أنه لا يسعني أن أعبّر عن مقدار أسفي، ولكن. . . لكن عليك أن ترتاح وإلا ستمرض، يبدو أنك لم تنم الليل.

أجاب بعناد:

ـ كلا، لم أنم. . .

لكنه ألقى بنفسه على الأريكة، ثم رفع إليها عينين كليلتين:

ـ أظنك تفكرين في أنه يجدر بي البقاء مع أبي، أليس كذلك؟ حسناً، إن معه روبين وناتسي بينما أنا. . . أنا. .

ثم سكت فجأة وهو يدفن وجهه بين يديه:

ـ فليساعدني الله. . . شعرت أنني بحاجة إليك.

شعرت راكيل بكيانها كله يتهافت إليه وودت لو تعزيه وتخفف عنه، ولكن عندما جلست بقربه، ابتعد عنها ككلب مسعور، وهو يتمتم:

ـ لا تقتربي، لست بحاجة إلى شفقتك! أتظنينني فخوراً بنفسي لاعترافي هذا؟

ابتعدت عنه راكيل وهي تترنح، ثم قالت متلعثمة وهي تبحث عن كلمة ما في مواجهة ثورته:

ـ ربما. . . ربما تحب أن تخبرني. . . بما حدث.

ردّ شعره إلى الخلف باصابع مرتجفة، ثم تمتم بخشونة:

ـ أجريت لها العملية متأخرة، لم يكن الذنب ذنب أحد، وإنما لا بد أنها علمت بضعف احتمالات شفائها. . . أظنها لهذا أرادتك أن تخبريني، كانت تعلم أنني قد أشتبه في الحقيقة.

قالت راكيل برقة:

ـ لم تكن تريدك أن تقلق. إنك تعلم كيف كانت... ليز، كيف تلقى أبوك النبأ؟ أظنه تحطم!

أراح جيم ذقنه على قبضته:

ـ آه، أبي سيشفى من الصدمة، أظنه كان اكثر استعداداً لهذا مني أنا... لقد... لقد صعقت.

بللت راكيل شفتيها:

ـ هل... هل استيقظت من تأثير البنج؟

هز رأسه:

ـ أتعنين بعد العملية؟ كلا، قالوا إن قلبها لم يحتمل، كانت عملية صعبة تماماً، بينما... بينما لم... لم تكن امرأة شابة.

أومأت راكيل: «وروبين؟»

ـ آه، أنت تعرفين روبين، لقد بكى كثيراً، وأظنه أفرغ حزنه مع دموعه.

توقعت راكيل هذا، فروبين من النوع الذي لا يخجل من إظهار مشاعره. أما جيم فأمره مختلف، إنه يتمزق إرباً، ولكنه يخفي عذابه في داخله، حيث لا يشعر به أحد.

قالت وهي تحاول التصرف بشكل طبيعي:

ـ كيف وصلت إلى هنا إذن؟

فتنهد جيم:

ـ لقد ركبت في قطار البريد، أخبرت أبي أنني سأعود بالطائرة فيما بعد خلال النهار... تذرعت بأعمال... عليّ أن أقوم بها.

ـ ثم... جئت إلى هنا؟

ـ هذا ما يبدو، أليس كذلك؟

حركت راكيل كتفيها بعجز:

ـ أنا مسرورة لذلك...

لوى شفتيه قائلاً:

ـ أحقاً... لا أظنني كذلك.

ـ ماذا تعني؟ قلت... قلت إنك بحاجة إليّ.

ـ أعلم هذا.

فترددت:

ـ ألست... كذلك؟

بدت عليه السخرية:

ـ ماذا يعني ذلك؟ أنك مستعدة للتضحية بنفسك، لتخففي من حزني فقط؟

حبست راكيل أنفاسها:

ـ لا داعي لهذا الكلام!

ـ أحقاً؟ أحقاً؟

ونهض عن الأريكة مرة أخرى وكأنه لا يحتمل الجلوس بجانبها.

ـ حسناً، أريحي نفسك، لم أحضر إلى هنا سعياً وراء جسدك، جئت لأنني... لأنني بحاجة إلى من أتحدث إليه، شخص عرف أمي، وأحبها. ثم... لا بأس... دوماً كنت أجدك متعاطفة معي.

رفعت بصرها إليه:

ـ متعاطفة؟ أهذا كل شيء؟

فأظلمت عيناه:

ـ ماذا تريدينني أن أقول؟

وابتعد عنها، وهو يكاد يجر ساقه إلى جوار المدفأة، ثم سألها:

ـ أي نوع من الاعترافات تريدين؟ أنني أحببتك... أكثر مما قد يحب رجل امرأة؟ وأنني كنت أريدك وأحتاجك؟ أنني شعرت برغبة في الموت عندما قطعت علاقتك بي؟ رباه، إنك تعلمين هذا كله، فلا تغيظيني الآن!

وقفت راكيل وهي تترنح:

ـ أنا.. أنا لا أغيظك يا جيم.

قالت ذلك غريزياً إذ كانت تدرك أنها آخر فرصة لها لرأب الصدع

الذي شقّته بينهما وها قد تجلت أمامها الآن كل تلك الأحاسيس التي شعرت بها... لكنها لم تختر هي هذا الطريق، وإنما اختير لها، ومهما كان الماضي، فليس لها أن تحرم هذا الرجل أو تحرم نفسها، السعادة التي لا يحسّان بها إلا معاً. قالت:

ـ هل هذا يعني... أنك لم تعد تحبني؟

حملق فيها من آخر الغرفة، ثم قال بوحشية:

ـ الحب يموت من دون رعاية وتغذية، كل شيء يموت.

قالت بإلحاح:

ـ ولكن هل مات حبك؟

قال بغضب:

ـ ماذا تريدين مني يا راكيل؟ لقد قمت بكل ما في وسعي لكي أبرهن لك عن حبي، لكنك لا تريدينني، لا تحتاجين إليّ! شقتك، ومهنتك، وحياتك الصغيرة المنظمة...

قالت له متوترة:

ـ هذا لا يكفي، لقد... لقد اكتشفت أن هذا لا يكفي.

نظر إليها بعينين يملأهما الشك.

ـ وما الذي أفهمه من كلامك هذا؟ أنك قررت إحداث تغيير؟ أنك قابلت رجلاً تريدين قضاء حياتك معه؟

أومأت قائلة: «ربما».

ـ لماذا إذن تسألينني بحق الله؟

سألها هذا بوحشية وهو يتقدم نحوها بخطوات واسعة متألمة، ثم أمسكها بكتفيها وهزها بقوة إلى أن تساقطت خصلات شعرها على كتفيها. عند ذلك... عند ذلك فقط، بدا وكأنه عاد إلى رشده، فتأوه متعذباً وهو يتمتم:

ـ لا تخبريني... لا تخبريني عن رجل آخر، ليس الآن... ليس اليوم... لا يمكنني احتمال المزيد.

قالت بصوت مختنق:

ـ أواه، يا جيم. ليس هناك من رجل آخر، إنه أنت. دوماً كنت الرجل الوحيد، لكن كبريائي منعتني من الاعتراف بضعفي.

اشتدت أصابعه على ذراعيها من دون وعي منه:

ـ ماذا؟ ماذا تقولين؟

ـ أقول إنني أحبك، وإنني أريدك، وإنني أحتاج إليك، آه، يا جيم، لطالما علمت هذا، لكنني كنت حمقاء مجنونة!

كان جيم يرتعش:

ـ هذه... مجرد شفقة، تقولين هذا لأنك تشعرين بالعطف عليّ فقط.

ـ كلا، جيم، أنا آسفة لأجل أمك، وأنت تعلم هذا، وإذا أمكنني فعل أي شيء للتخفيف عنك، سأفعله، ولكن... هذا الأمر يتعلق بي وبك، يا جيم، بحياتنا، فإذا كنت ما تزال تريدني...

ـ إذا كنت ما أزال أريدك؟

وتأوه وقال وقلبه يخفق بعنف:

ـ أواه، يا راكيل، رغبتي فيك لم تهدأ قط، وأنت تعلمين هذا...

ثم شعرت بصوته يضعف وبجسده يخور من شدة التعب فقالت:

ـ عليك أن تنام.

وعندما صدرت عنه إشارة سخرية، عادت تقول:

ـ كلا، أعني عليك أن ترتاح قليلاً، لا يمكنك أن تستقل الطائرة عائداً إلى نيوكاسل وأنت على هذه الحال.

ـ هل تأتين معي؟

ـ إلى نيوكاسل؟

فلوى شفتيه: إلى أين إذن؟

ـ إذا أردتني أن أذهب.

ـ إذا أردتك أن تذهبي، يا حبيبتي. أريدك معي على الدوام، منذ الآن

فصاعداً، ليلاً نهاراً، ستتزوجينني، أليس كذلك؟

ـ إذا كان هذا ما تريده.

ـ هذا ما أريده، إنه ما أردته دوماً.

وتردد:

ـ أما بالنسبة إلى بيتسي...

قاطعته وهي تضع إصبعها على شفتيه:

ـ ليس الآن، يمكنك أن تخبرني عن بيتسي فيما بعد... أما الآن، فيجب أن ترتاح، كما علي أن أستعد للعمل، بعد أن أعدّ لك الفطور طبعاً...

وابتسمت.

وعندما أرادت أن تغادر الغرفة، أوقفها قائلاً:

ـ أما... حمل بيتسي؟

أحنت راكيل كتفيها:

ـ إذا قلت إن الحمل ليس منك، فأنا أصدقك.

فردّ وهو يشعر بالارتياح:

ـ كلا، ليس الحمل مني.

ـ أنا آسفة، هل تصفح عني؟

فأجاب:

ـ لماذا أصفح عنك وأنت لم ترتكبي خطأ؟ والآن إذهبي أعدّي القهوة قبل أن أفقد نواياي الطيبة.

تركت راكيل جيم نائماً ثم ذهبت إلى العمل مرتاحة البال... كان موت ليز مأساة رهيبة وسيفتقدونها بشكل بالغ، لكنها لم تستطع إلاّ أن تفكر في سرور ليز البالغ لو علمت أنهما تصالحا أخيراً. قررت راكيل ألا تفكر في بيتسي بعد الآن، فهي وجيم مطلقان، وقد انتهت علاقتهما قبل أن يعرفها جيم، وإذا صدق والد بيتسي، فهي لم تكن زوجة صالحة قط.

ولكن مهما بلغت أخطاء بيتسي، ظلت راكيل تفكر فيها فيما بعد ذلك

الصباح، خاصة عندما تلقت مخابرة تليفونية من جاك موريسون، والد بيتسي. ردت تحيته المهذبة وهي تشعر بالتوجس. لم يسبق له أن اتصل بها من قبل.

ـ أظنك متدهشة لاتصالي هذا يا راكيل، أليس كذلك؟ حسناً، لديّ ما أضيفه على حديثنا أمس، سأشرح لك بعض الأمور.

ـ آه، ليس ذلك ضرورياً، في الواقع.

ـ بل أظنه كذلك، أريدك أن تتناولي الغداء معي، إذا شئت.

ـ لا أستطيع.

وكان هذا صحيحاً، فقد رتبت أمورها على أن تترك العمل بعد ظهر هذا اليوم، ثم تسافر مع جيم إلى نيوكاسل بالطائرة عند العصر، وبالتالي لا يمكن لها أن تتناول الغداء مع موريسون من دون أن تثير شكوك جيم، وهذا آخر ما تريده الآن.

ـ هل أنت خائفة مني، يا راكيل؟

وعندما أنكرت ذلك بسرعة تابع:

ـ لماذا لا تتناولين معي الغداء إذن؟ أؤكد لك أن الأمر هام.

فتنهدت:

ـ لقد ماتت والدة جيم، وسنذهب أنا وجيم معاً إلى الشمال عصر هذا اليوم.

ـ فهمت، ظننت أن جيم ذهب إلى هناك أمس.

ـ هذا صحيح، لكنه عاد، آه، لا أعرف كيف أوضح الأمر.

ـ أظنك تعنين أنه عاد ليخبرك؟

ـ نعم.

ـ وهل أنت ذاهبة معه؟

ـ نعم، وأظن عليّ أن أخبرك أننا قررنا الزواج هذا الصباح.

ـ فهمت، حسناً، لا أنكر أنني أشعر بالارتياح، لقد بدت حالته أمس سيئة جداً.

أطلقت راكيل ضحكة عصبية: «شكراً».

ـ وبيتسي؟

ـ ماذا عن بيتسي؟

ـ لقد أخبرك عن بيتسي، أليس كذلك؟

ـ سيد موريسون...

ـ ألم يفعل؟

فبللت شفتيها:

ـ سيفعل فيما بعد، هذا ليس مهماً.

فقال بحزم: بل هو مهم.

ـ سيد موريسون، قلت أمس إنك موافق على تصرف جيم...

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ لماذا إذن نتطرق إلى موضوع بيتسي؟

ـ لأنني... لأنني أعلم طباع جيم، فهو لن يذكر لك القصة كلها، وأنت، حسب شخصيتك، ستتساءلين دوماً، عن الحقيقة الكاملة.

ـ هذا ليس ضرورياً.

فتنهد السيد موريسون:

ـ أصغي إليّ يا راكيل، أنا أفهم شعورك، صدقيني، ولكن صدقيني أيضاً أنك لن تكوني إنساناً إذا لم تساورك الشكوك.

ـ ما الذي تريد أن تخبرني به يا سيد موريسون؟

ـ قابليني فتعلمين، اسمعي، الساعة الآن تقارب الثانية عشرة، وافيني لنشرب فنجان قهوة فقط، من المؤكد أنك تستطيعين منحي نصف ساعة من وقتك.

لم تكن راكيل ترغب بذلك، لا تريد أن تسمع عن علاقة جيم ببيتسي. لكنها لمست شيئاً من الحقيقة في قول السيد موريسون، فلطالما منعها الخوف من الخوض في هذا الموضوع.

أخيراً قالت:

ـ لا بأس، سأراك بعد ربع ساعة... ولكن لن نتناول القهوة، بل سألقاك في الحديقة العامة حيث يسهل الحديث.

ـ كما تريدين.

ما إن انتهت المكالمة حتى قفزت راكيل عن كرسيها وهي تتساءل هل يجدر بها أن تخبر جيم، لكنها قررت ألا تقوم بذلك، فسيعرف في نهاية الأمر لأنها ستخبره بنفسها، إذ لا تريد أن تبدأ حياتها بالخداع وقد نالت كفايتها من ذلك.

كان السيد موريسون يبدو كعادته، نزيهاً وصادقاً. سألها وهي تسير بجانبه:

ـ هل نتمشى؟ والآن، ماذا أخبرك جيم؟ أظنك تعلمين عن «بولينديل؟».

فهزت رأسها:

ـ بولينديل؟ وما ذاك؟

ـ بولينديل هو في باكنغهامشاير، حيث تعيش بيتسي.

ـ آه، آه، نعم، سمعت بذلك المكان.

فتنهد:

ـ هذا حسن، والآن، من أين نبدأ؟ أظن عليّ أن أبدأ منذ البداية، عندما كانت بيتسي مراهقة، كانت دوماً تثير المشاكل، ودوماً تقع في المآزق، وعندما أخذت ترافق مجموعة من الفتية المنحرفين، سرعان ما تعاطت المخدرات.

ـ المخدرات؟ هل كانت ابنتك مدمنة؟

ـ كانت؟ بل ما تزال، من يعلم؟ وهل يتحرر أحد من عادة كهذه حقاً؟

ـ أتعني أنها لم تتحرر منها؟

ـ لا أدري، من المفروض أنها شفيت، ولكن أحياناً تتراءى لي تلك النظرة في عينيها. على كل حال، ظننت في البداية أنها ستتغيّر ما إن أبعدها عن تلك الزمرة من المنحرفين، ستتغيّر حقاً، أعني، عند ذلك دخل جيم

في الموضوع.

- جيم؟

- نعم، كان يعمل في الاستديو طبعاً، وقد انعقدت الصداقة بيننا، ولحسن الحظ ما زلنا كذلك، وأظنه شاركني الاهتمام ببيتسي. لقد انجذبت إليه، وقد عرفت أنا ذلك، وعندما بدأ يخرج معها سررت حقاً، هل يمكنك تصوّر ذلك؟ لقد توقفت عن الخروج مع أولئك المنحرفين ذوي الشعور الطويلة، وكأنها عادت فتاة طبيعية تقريباً. . . لقد شجعت علاقتهما تلك، ولا أنكر هذا، متسائلاً أحياناً هل يقدم جيم على الزواج منها ولو لأجلي. ولكن، مهما كانت الحقيقة فقد تزوجا، وكانت الكارثة!

ابتلعت راكيل غصة في حلقها: ولماذا؟

فهز رأسه:

- لأنها كانت ما تزال متعلقة بالمخدرات. . . أعني أنها استطاعت إخفاء ذلك عني، لكنها لم تستطع إخفاءه عن زوجها.

- فهمت.

وتملك راكيل الذعر، لكنها حاولت عدم إظهار ذلك.

- لا أظنك فهمت حقاً، إذا لم يسبق لك العيش مع مدمن، فأنت لا تعلمين كم يصبح شريراً إذا منع عنه المخدّر، إذ يصيبه هياج عنيف. . . عنيف! وقد قامت بيتسي بأشياء فظيعة. . . ماذا أقول. . .؟ كانت دوماً مغرمة بالجنس الآخر، ولم أدرك مبلغ ذلك قط لسوء الحظ.

- أتعني أنها أقامت علاقة مع رجل آخر؟

لوى السيد موريسون شفتيه بمرارة:

- رجل آخر؟ بل سلسلة من الرجال الآخرين! لم يعرف جيم قط من سيجد في فراشه عند عودته من مهماته الصحفية. . . صدقيني، ليس سهلاً عليّ أن أخبرك بكل هذا، فهي ابنتي. لكنني أعرف جيم، وأنا أدين له بالكثير وأنا أعلم أنك لن تعرفي منه أبداً مثل هذه التفاصيل الحقيرة.

- آه، يا سيد موريسون.

تجاهل تعاطفها ثم تابع:

- كانت تقتل نفسها طبعاً. . . بإمكان أيّ شخص أن يرى ذلك، ثم انهارت صحتها، وبدأت بالهذيان، فأخذوها إلى المستشفى.

قالت راكيل مترددة:

- لم يكن لديّ فكرة، عندما جاءت لتراني، ألقت اللوم على جيم.

- أعلم هذا، فقد أخبرني جيم، لقد تحطّم عندما رفضت الاستماع إليه. أظنه، حينذاك، كان يائساً.

- لكنه كان ما يزال يعيش مع بيتسي، لقد قالت لي هذا. كان لديهما بيت في باكنغهامشاير.

نظر إليها بحيرة: أي بيت؟

- بولندبل، لقد ذكرت أنت هذا بنفسك.

- يا عزيزتي راكيل، بولنديل هو مستشفى الأمراض النفسية. ظننتك تعرفين هذا، وبيتسي هناك منذ خمس سنوات!

- ولكن كيف يعقل هذا وقد جاءت لرؤيتي وهي حامل!

توتر شفتا موريسون:

- حامل، نعم. وذلك من أحد المرضى، للأسف، وكان هذا فظيعاً.

تشهقت:

- ولكن كيف جاءت إلى لندن؟

- لقد هربت، ضربت إحدى الممرضات على رأسها، ثم سرقت ثيابها. يمكنها أن تصبح عنيفة أحياناً، وأحياناً أتساءل إن كانت ستخرج من المستشفى، يوماً ما.

لم تستطع راكيل استيعاب كل ذلك، فصرخت:

- ولكن ماذا عني أنا؟ كيف استطاعت أن تعلم بأمري؟

- ماذا تظنين؟ لقد أخبرها جيم بذلك، طبعاً، أرادها أن توافق على الطلاق، في البداية نصحوه بألاّ يتطرق إلى هذا الموضوع معها، ولكنها بدت أحسن حالاً بكثير، فظن. . . .

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN^

ـ آه، رباه!

وتمنت راكيل لو تموت خزياً واحتقاراً لنفسها لأنها كوّنت النتائج بأنانية وتسرع، حتى إن أباها نفسه قال إن ظاهر الأمور ليس دوماً كباطنه... كم كان على صواب، وكم كانت على خطأ!

تنحنح السيد موريسون الآن:

ـ على كل حال، يبدو أنك فهمت الآن لماذا لا ألوم جيم على علاقته بك، ترين أنني أنا الملام، لقد دمرت حياته.. أنا وبيتسي.

تذكرت راكيل ما قالته مدبرة المنزل السيدة ارمسترونغ عن «تيري مارشال»، وتذكرت أن الأسرة رفضت استقبال بيتسي في «كلير هايتس» بعد ذلك. إنها تعرف السبب اليوم، أما الآن فكل ما تشعر به هو حمل ثقيل من الاكتئاب تحملته لسنوات، وبكل عناد.

ثم قالت:

ـ لا أدري ماذا أقول، أريد أن أشكرك، لكنني أخاف أن أبدو قاسية القلب... إنني آسفة لأجل ابنتك يا سيد موريسون، آسفة حقاً، ولكنني مسرورة جداً لأنك أخبرتني.

* * *

عندما عادت إلى الشقة، كان جيم ينتظرها وقد حلق ذقنه وارتدى ثيابه وأخذ يذرع الغرفة بقلق.

هتف لدى دخولها:

ـ أين كنت؟ اتصلت بمكتبك فقيل لي إنك غادرت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً.

بللت راكيل شفتيها:

ـ هذا صحيح... في الحقيقة، لقد اتصل بي السيد موريسون.

فقطب جيم حاجبيه:

ـ اتصل بك؟ لماذا؟ وماذا يريد؟ لم أكن أعلم أنك على اتصال به.

ـ هذا صحيح، لم يكن بيننا اتصال، لقد تكلمت معه أمس عندما

سألت عنك.

وعندما رأته ينظر إليها بحيرة، تنهدت وقالت:

ـ آه، يا حبيبي، سأوضح لك كل شيء، ليس لديّ ما أخفيه.

بقي جيم واقفاً، بينما قالت:

ـ عندما اتصلت أمس لأسأل عن موعد عودتك من نيويورك كنت أنت مع جاك موريسون.

ـ نعم.

ـ حسناً، حولوني إلى مكتبه، ولكنك لم تكن موجوداً، ولم أستطع الحديث معك إلا فيما بعد.

قطب جيم جبينه: «استمري».

ـ حاول أن يخبرني عن بيتسي.

ـ فهمت.

ـ لكنني لم أسمح له بذلك. كنت، آه، كنت قليلة التهذيب معه، لم أستطع أن أصدق أنه قد يقبل بعلاقتنا، خصوصاً وأن بيتسي هي ابنته، وقد طلبت منه ألا يخبرك باتصالي هذا.

ضاقت عينا جيم:

ـ واليوم؟

فأحنت رأسها:

ـ لقد اتصل بي... قائلاً إنه يهتم بأمري وبالطريقة التي تصرفت بها. أخبرته بوفاة والدتك، وأنك جئت إلى بيتي وأننا قررنا الزواج، لكنه أصرّ على أن يخبرني بكل شيء عن بيتسي.

ـ وبعد ذلك؟

ـ قابلته. وأخبرني بكل شيء فعلاً، وأنا آسفة إذ رفضت الاستماع إليك من قبل.

توتر جيم:

ـ وهل يُحدث ذلك فرقاً؟

فردت بسرعة:

ـ طبعاً يحدث فرقاً، كيف تظن العكس؟

هز جيم رأسه:

ـ لا أدري... وهكذا... غيرت رأيك؟

نظرت إليه بحيرة:

ـ غيرت رأيي؟ طبعاً غيرت رأيي... إنني... حمقاء، كان يجب أن أصغي إليك.

ـ نعم، نعم. كان يجب عليك ذلك.

ثم تحرك متجهاً نحو الباب:

ـ عليّ أن أذهب الآن، يجب أن أذهب إلى شقتي وأحضر بعض الثياب النظيفة، ثم أتوجه إلى المطار...

نظرت إليه راكيل بذعر:

ـ و... أنا؟

ـ أظنك تريدين العودة إلى العمل، أليس كذلك؟ فوقتك ليس ملكك، سأخبرك عن موعد الجنازة... ربما تريدين حضورها...

ـ جيم، جيم. ما الذي تتحدث عنه بحق الله؟

هذه المرة، اندفعت راكيل نحوه... أمسكت بكمه وأخذت تحملق فيه بألم وحيرة. لكنه كرر قوله بجمود:

ـ عليّ أن أذهب.

لكنها تعلقت به بشدة لا تريده أن يذهب، وهي ترفض أن تصدّق ما تسمع، ثم صرخت:

ـ جيم، هل أنت غاضب مني؟ أتظنني أخطأت في الإصغاء إلى جاك موريسون؟ لم يفعل ذلك إلا لأجلك، كما تعلم، كان يعلم أنك لن تخبرني أبداً بكل شيء، لكنه فعل ذلك... فعل ذلك، أوّاه، يا جيم... لا يمكنني أن أبدأ الآن في طلب الصفح منك بعد أن شككت فيك بهذا الشكل!

فتح جيم فمه ذاهلاً:

ـ لكنك قلت إنك غيرت رأيك؟ وإن ما سمعته غيّر رأيك.

ـ حسناً، طبعاً حدث ذلك، ولكن لأنني رأيت الأمور على حقيقتها، وليس كما كنت أعتقد.

ـ أتعنين... أتعنين أنك ما زلت تريدينا أن نكون معاً؟

فانهمرت دموعها:

ـ ما زلت أريد؟ جيم، إذا أنت تركتني الآن، لا أدري ماذا أفعل بنفسي.

ـ راكيل...

عمت الفرحة وجهها وبدا حائراً ماذا يقول.

ـ أنا آسف.

وعندما فتحت فمها احتجاجاً، كان هو الذي قاطعها يسكتها، متابعاً:

ـ أعني.. أنني كنت أحمق، ظننت... آه، لا أدري ما ظننت، عندما قالت موظفة الإستعلامات إنك غادرت المكتب منذ وقت طويل، لم يخطر ببالي سوى الأسوأ، وعندما أخبرتني بعد ذلك أن موريسون تحدث إليك، ظننتك غيرت رأيك فيّ.

ـ جيم...

ـ أعرف. كان ذلك جنوناً مني بعد ما حدث بيننا هذا الصباح، لكنني حالياً لست واثقاً من نفسي فما كان مِني إلا أن صدقت الأسوأ.

قالت:

ـ أنا أحبك، هل تريد حقاً أن تذهب إلى شقتك؟

ـ نعم، ولكن بإمكانك أن تأتي معي. الآن... أظن عليك أن تأكلي شيئاً، إنك تبدين شديدة الشحوب.

ـ وأنت أيضاً، أواه يا جيم. يا له من يوم مرّ علينا.

ـ لكنك، على الأقل، أصبحت تعرفين الحقيقة الآن.

ـ أنا آسفة، أعني آسفة لأجل بيتسي.

فتنهد جيم:

ـ ليس الذنب ذنبها في الواقع، لقد بدأت تتعاطى المخدرات منذ كانت في المدرسة، وكانت النتيجة التي لا مناص منها.

ـ جاك موريسون رجل شهم.

ـ شهم جداً، ورقيق جداً تجاه بيتسي، دوماً كانت تحركه بإصبعها الصغير.

ارتجفت شفتا راكيل:

ـ أخبرني بأنك تحبني، اجعلني أشعر بذلك، أشعر به حقاً.

فقال برقة بالغة:

ـ أنا أحبك، وسأمضي بقية حياتي في إثبات هذا.

* * *

كانت الجنازة بالغة الوقار، وعندما انتهت عاد روبرت مع جيم وراكيل إلى لندن. أراد أن يقيم مع أصدقائه في هامشاير لفترة من الوقت، كي يكون قريباً من جيم وراكيل عندما يتزوجان خلال شهر.

في الشقة، تهالكت راكيل على الأريكة متعبة، ثم قالت وهو يتمدّد بجانبها:

ـ كان يوماً مرهقاً...

فمدّ ذراعه حولها واستكانت هي قربه.

ـ ما أجمل أن يعود المرء إلى بيته، وجودك وحده يجعل الأمور كلها أسهل.

فقالت باسمة: «أسهل»؟

ـ وأحسن، وأجمل، وأكثر إشراقاً.

ابتسمت له ابتسامة حب.

ـ بالمناسبة، لديّ شيء لأجلك...

ومدّ يده إلى جيب سترته، وأخرج قطعة من المخمل:

ـ كنت أنوي منحك إياه منذ أكثر من سنتين.

تسارعت خفقات قلب راكيل بينما سقط الخاتم ذو الفص الياقوتي في راحته. كان الخاتم الذي ظننته لبيتسي، وها هي تدرك الآن أنه أراده خاتماً لخطوبتهما فقفز قلبها فرحاً.

سألها:

ـ أتضعينه الآن في إصبعك؟

فأومأت. وبرقة فائقة ألبسها إياه، ثم أحنى رأسه يتأمله، وهو يقول بصوت أجش:

ـ وهكذا... تحقق لأمي ما كانت تريده.

ـ أظنه كان قصدها دائماً.

قال بهدوء:

ـ أعلم هذا، إذ ما من سبب آخر لتشركك في مشاكل الأسرة الخاصة، فقد رأت في ذلك فرصة لجمعنا معاً وقد نجحت خطتها في النهاية.

ـ كانت تعلم بأمر بيتسي، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ لماذا لم تخبرني إذن؟

ـ أنا طلبت منها ألا تخبرك.

ـ ولماذا؟

فتنهد جيم:

ـ لا أدري، بدت لي مشكلتي الخاصة.. كان علينا أن نجد لها حلاً بأنفسنا.

ـ وقد فعلنا.

ـ نعم، لقد فعلنا ذلك... ثم، بالمناسبة، هل عنيت ما قلته مرة عن المرأة العاملة؟ أذكر أنك قلت مرة إن من الأفضل أن يشارك الرجل زوجته في عملها. عليّ أن أخبرك بأنه ما من شركات تلفزيونية في جنوب الباسيفيك لتعملي فيها.

فقالت لاوية شفتيها:

- أظن ذلك يعتمد على نوع الزوج، هذا إلى أنني لم أقل إنني امرأة عاملة، كنت أتكلم بشكل عام.

- حسناً، إنني أتكلم الآن بشكل خاص، وأنا مسرور جداً لسماع ذلك.

وتثاءب وهو يغطي فمه معتذراً: «الآن سأنام وحدي ولكن قريباً يتغير كل شيء.. فقريباً قريباً نصبح زوجين».

... وأدركت راكيل أن الحواجز بينهما انهارت إلى الأبد.

* * *

مع تحيات منتدى ليلاس